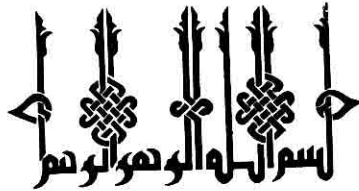


تهافت الفكر الجدلي

وقضايا معاصرة

الدكتور عبد اللطيف الفرفور



دار المعرفة

مكتبة مطبعة سورية

دمشق - خلف الطرود البريدية - شارع الجمهورية

سجل تجاري ٥٤٠٩٢ ☒ ٣٠٢٦٨

٢١٠٢٦٩ ت.كس ٤١٢٥٣ طه

جميع الحقوق محفوظة للناس

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

مطبعة الصبح

دمشق - هاتف ٢٢١٥١٠

عدد النسخ (٢٠٠٠)

بسم الله الرحمن الرحيم
إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه
ونستغفره ونتوب إليه من شرور
أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهتدِ
الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلَّل فلا
هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا
محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ
وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه ومن والاه .

خطبة الكتاب

هذا الكتاب مجموعة من المقولات الهادفة ذات الطابع التحليلي النقدي الموجّه كتبّها في أوقات متفرقة حسب المناسبات والأوضاع^(١) ، ولا يضير في نظري كتاباً أن يكون كاتبه قد صنفه في آماذ متباينة ، بل هذا في عندي هو الوضع الأمثل للتصنيف في مثل غرض هذا الكتاب من النقد والتحليل ولأن الكاتب فيه يهتبل فرصة إعادة النظر فيما كتب فيكون من ذلك كله الكلام المحكّك الناضج .

ولعلي لا أجانف الصواب إذا قلت إن الحظ الأوفر من الشكر يجب أن يتوجه إلى أولئك الذين كانوا السبب الرئيس في وضع هذه المقولات وتدييحها ، وأقصد الأشخاص الكاتبين الذين كتبوا ماباعدّهم عن الصواب فاضطروني ذلك إلى مناظرتهم طبقاً لقواعد المناظرة العلمية مع احترامي لهم وتقديري لجهودهم ، والخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية ، وقدima اختلف العلماء وتناظروا ، وكل منهم يحترم الآخر ويقدّره قدره ، وهذه أخلاق العلماء .

ولا يذهبن بك الوهم قارئ الكريم إلى القول بأنني أخاصم زيداً أو عمراً بدافع ذاتي من طرف نفسي ، لأفوز بالنصر العزيز المؤزّر ، وأصل بذلك إلى سُدّة المجد ، لا ، وأعوذ بالله أن يكون حظي من هذا الذي كتبت وناظرت خصومة شخصية أو حسداً أو اشتداداً نحو

(١) نُشر بعضها في مجلات مختلف كالفيصل والمجلة العربية ونهج الإسلام السورية ومجلة المجمع بدمشق وغيرها .

صيت أو سُمعة فارغة جوفاء ، إذاً لكان كلُّ ما فعلتُ لغوا من القول لا يوازي عند الله تعالى جناح بعوضة وأكون قد خسرتُ كذلك صداقة الآخرين ومجاملتهم ، ورجعتُ من الدنيا والآخرة بالخسران المبين ، وكنتُ أخسر الخاسرين . . .

والحق الذي أدين الله به وأرجو أن ألقى الله عليه وهو عني راضٍ أنه من ابتغى رضا الناس بسخط الله عز وجل أسخط الله عليه الناس ، ومن ابتغى رضا الله بسخط الناس أَرْضَى الله عليه الناس . كما جاء في الأثر المروي عن سيدتنا عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما مرفوعاً ، وإني ابتغيتُ رضا الله ولو سخط بعض الناس ، ولكن الله تعالى كفيلاً بإرضائهم يوم يكون رجوعهم إلى الحق قريباً إن شاء الله فينجلي الغُش والغِشَاوة من على أعينهم ويثوبون إلى الهدى والصواب ، فيعلمون حق العلم أنا كن لهم من الناصحين ، وأنا نحبهم فننصح لهم ولا نبغضهم فنغشهم ، ولكنهم لا يحبون الناصحين .

ولعل هنالك في خلافتنا مع هؤلاء الباحثين درجات ، فمنهم من نخالفهم في أصول الدين ، ومنهم من نخالفهم في فروع العلوم ، ولكل نوع من هذا الخلاف لغةٌ ، ولكل صنف من هؤلاء في أنفسنا رصيد ، غير أن القاعدة العامة لديّ أن الخلاف موضوعي علمي بحث لا علاقة للأمور الشخصية فيه ، زد على ذلك أن أكثر هؤلاء الذين ناقشتهم لا أعرفهم ، ولا تربطني بهم أية علاقة أو نسب إلا نسب العلم .

أما أولئك الأساتذة الباحثون الذين عرّفتُ بكتبهم تقریظاً

ونقداً فهؤلاء أصدقاء أعزة لي لهم في قلبي نصيب كبير وإني وإن
مزجت التعريف بالتقريظ وبقليل من النقد العلمي ، فما النقد هنا في
الكلام إلا كالمالح للطعام إذ زاد نقص والقصد النييل ظاهر والله
الحمد ، ولكن هي شجون القول ، والحديث ذو شجون .
أما بعد ، فلن أقدم كتابي ولن أطريه كما أني لن أنقده ولن
أعرّف به ، بل أرجو أن يقرأه القارئ المنصف بعين المحبة ويقرأه
صاحب العلاقة بعين الإنصاف ، ويتلقاه الجميع بالقبول والحمد لله
الذي بنعمته تتم الصالحات .

المؤلف

تهافت
شُبُهَاتِ الْفِكْرِ الْمَادِيِّ الْجَدَلِيِّ
أمام حقائق الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ

وهو مناقشة للكتاب المسمّى بـ
(نقد الفكر الديني) للعظم على أسس علمية

(إن كنت ناقلاً فالصحة ، أو مدّعياً فالدليل)

المنهج العلمي الإسلامي

تصدير

من نِعَم الله عز وجل وآلائه على هذا الدين أن قِيَضَ الله له أناساً يهاجمونه ويُعارضونه ويُقفون في وجهه ويُعلنون عليه في السر والعلن حرباً ضروساً لا هوادة فيها بأفكارهم وأقلامهم ويرصدون لذلك الأموال العظيمة والجهود الكبيرة ، والهمم العالية ، ويُجندون لهذه الحرب أفتك مالديهم من أسلحة فكرية مدمرة ، ومادية مبيدة ، وهم كلما فعلوا وَقَفُوا ينظرون وقد ملأت الابتسامة ثغورهم ، والسرور ملامح وجوههم ، وقفوا ينتظرون انتهاء الإسلام وهم لا ييهمهم من حربهم تلك إلا الإسلام ، ولكنهم لغرض خبيث في أنفسهم يخلطون بين الإسلام وغيره من الديانات المحرّفة المختلقة المكذوبة على الله لكي يضعوا الإسلام في صف الخرافة والخرافيين ، ثم يشنون تلك الغارة الشعواء على الجميع بما فيها الإسلام فيلتبس الحق بالباطل وتضيع الموازين ويثبهم الأمر وهكذا يحققون في زعمهم إنهاء دور الإسلام في قيادة العالم

ولكنهم سرعان ماتتجّهم جباههم وتكلّح وجوههم يوم يرون النار التي أوقدوها على الإسلام ارتدت إليهم فأحرقت باطلهم وكشفت عوارهم ، فما زادت الإسلام إلا قوة وعزماً وانتشاراً حتى كأنهم بذلك إنما يُبشرون بالإسلام ليُعرف الناس حقيقته فيدخلوا فيه أفواجا ، ويدير الناس حينئذ ظهورهم للأباطيل حين تحرقها نار الحقيقة وصدق الله تعالى في قوله ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾ .
وما أحسن قول الشاعر العربي :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ماكان يُعرف طيب عرف العود

فكان بذلك هؤلاء يد على الإسلام لا نوفيهم إياها إلا حين ندعوهم إلى ترك ما هم فيه من ضلال فوراً والدخول فيه ليختم الله تعالى حياتهم بالسعادة وماعلى الله بعزير .

من هؤلاء القوم الذين حاربوا الإسلام في ضمن ماسماه (الفكر الديني) الدكتور جلال صادق العظم في كتابه (نقد الفكر الديني) فقد توهم أنه بكتابته اللا موضوعية تلك قد دك آخر معقل للإسلام فلم تقم له قائمة من بعد .
ونسي أو تناسى أن الأغاليط والمغالطات التي حفل بها كتابه لا تنطلي إلا على السذج الدهماء من أنصاف المتعلمين وأرباعهم أو أثلاثهم ، حتى هؤلاء استطاعوا بفطرتهم الأصلية أن يكشفوا عن هذه المغالطات المفصوكة فلقد قال لي طالب (باكالوريا) ويده هذا الكتاب (أتظن يا أستاذ أن هذا الكتاب علمي لأنه لبس مسوح العلم ؟ والله إن بينه وبين العلم ما بين النقيضين وما هو إلا كلام مجاني لا يستحق الرد عليه وحرامٌ ثمن الخبر والورق في الرد على مايقوله سكان المشافي العقلية !!) . هذا نص ماقاله شاب عصري طالب ثانوي .

وقع هذا الكتاب في يدي عن طريق بعض الشبان الذين يغارون على دينهم أن يدنس فكر ملحد حاقد ، وطلبوا مني أن أنظر وأرد عليه ، كان ذلك بعد صدوره بقليل أي عام ١٩٧٢^(١) فنظرت فيه نظرة علمية بحتة وعلقت عليه بعض الهوامش مبينة المغالطة وردّها حتى استوفيت ذلك ثم ترددت في الرد لانهيب بل ترفق بنفسي وعقلي عن مثل هذه الترهات ، ولكن إلحاح الشبان

(١) اطلعتُ خلال السنوات التي تلت كتابة هذا المقال على الردود التي ظهرت مثل كتاب (صراع مع الملاحدة حتى العظم) للأستاذ الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني وكتاب (هوامش على نقد الفكر الديني) للأستاذ محمد حسن آل ياسين ، وأخيراً (نقض أوهام المادية الجدلية) لصديقنا العلامة الدكتور الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي ، وأفدت منها في تعديل المقال قليلاً ولكن بقيت الفكرة الأساسية قائمة كما سيظهر لك عند قراءة البحث .

الصالحين عليّ في الرد جعلني أكتب هذه الصفحات القليلة في كمّها الكبيرة في مغزاها الجليلة عند الله عز وجل في ثوابها إن شاء الله تعالى ، كتبت وأنا أشرق بدمعي أن وصل بنا الأمر إلى أن نرد على أبناء جلدتنا في أمر ديننا ؟ ولا والله لو كان هذا الرد على أوروبي مستشرق أو كافر ماركسي ملحد من الروس أو الأمم الأخرى ماباليت ولكن من أمّتي التي نريد لها الوحدة بالإسلام والعزة بالقرآن !!

لو بغيرِ الماء حلقي شَرِقُ كنتُ كالغصان بالماء اعتصاري

وقفتُ ملياً عند كلمة (الفكر الديني) ماهو ؟ صحيح أنهم يريدون به عندما يطلقونه النصرانية واليهودية والوثنية والهندوسية و . . . الإسلام ؟ لا إنهم يريدون الإسلام وحده ، فتلك الشرائع والديانات ظاهر بطلانها مفضوح عُوارها عند الهجوم ولا قِبَل لها بذلك النقد والتعرية ، ولكنه الإسلام الخطر الكامن الحى علي كل ماهو فكر مادي مظلم !! .

وبعد :

فهل كان يجب عليّ أن أكتب الرد بحجم الأصل المردود عليه ؟
اللهم لا ؛

فحسبي من هذا الرد أنه ناقش أصول هذه الشبهات التي أثارها كتاب العظم على أسس موضوعية موزونة بالميزان العلمي الذي وضعه المنهج العلمي الإسلامي وتبنّاه البحث العلمي وهو (إن كنتَ ناقلاً فالصحة ، أو مدّعياً فالدليل) أما أن يطمع هؤلاء المخاليق بأن نكثر بهم ونقيم لهم وزناً أكثر مما أقام الله لهم في القرآن من وزن الذبابة أو البعوضة فنصنّف الكتب في الرد عليهم والحواشي والتقاريرات فذلك بعيد عليهم ، وهم أقل من ذلك وأصغر عند الله وعند عباده الصالحين بكثير . . .

وما كتبت هذا البحث دفاعاً عن الإسلام فهو أعلى سن أن يحتاج إلى دفاع
مثلي ، ولكن كتبتُه لأبين زيف عملة رائجة عند كثير من الناس كان ينبغي أن
تكون كاسدة لديهم لأنها عملة نهرجة ، ولكن حين يلتبس الحق بالباطل
والعملة الصحيحة بالعملة المزيفة وحين تضع الموازين وتنعدم المقاييس يُحتاج
إلى البيان ، وما البيان هو الذي جعل الحق حقاً وأعطاه حقيقته ، وما هو بالذي
جعل الباطل باطلاً ودمغه بباطليته ، وما هو بهذا ولا بذلك ، ولكنه البيان يرفع
الغطاء عن العيون والبرقع عن الوجوه فإذا البصر عندئذ حديد ، وحسبك من
ذلك كله الإشارة دون العبارة والتلميح دون التصريح والقليل دون الكثير
وللباطل أهون عند الله من أن يرد عليه المهتدون من العقلاء ، ولكن الله تعالى
سنّ لنا في كتابه وسنة نبيه الرد فاقتدينا ، فسنأله تعالى أن يكون خالصاً لوجهه
لاحظ للنفس فيه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

المؤلف _____

خطة البحث

- ١ - المنهج العلمي الإسلامي
 - ٢ - خلاصة الكتاب وضوابط البحث
 - ٣ - عناصر المناقشة .
 - ٤ - مناقشة النقاط الخمس
- | | | |
|----------------|---|-------------------------------|
| النقطة الأولى | : | وجود الله |
| النقطة الثانية | : | مناقشة مأساة إبليس |
| النقطة الثالثة | : | العلم والفلسفة - الفرق بينهما |
| النقطة الرابعة | : | نقطة النبوة |
| النقطة الخامسة | : | مصادر معلوماتنا عن الكون |

(١)

خلاصة الكتاب

- إن كل ماكتبه المؤلف الدكتور صادق جلال العظم في كتابه ونقد الفكر الديني ، لا يعدو النقاط التالية :
- ١ - الفكرة الأساسية والجوهرية في كل ماجاء به المؤلف هي فكرة (الله) فهو ينكرها كلياً .
 - ٢ - بيان فساد النظرية الدينية بفساد نتائجها مع التسليم بالمقدمات ، وبحث مأساة إبليس كشاهد على ذلك .
 - ٣ - فكرة (العلم) وهو يؤيدها كلياً بلا تحفظ لكن حسب تفسيره الخاص لها .
 - ٤ - فكرة مقارنة ماتوصل إليه العلم بما توصل إليه الدين من نتائج حول تفسير الظواهر الطبيعية .
 - ٥ - عرض نقاط الحلول التي أتى بها أصحاب النظرية الدينية ونقدها .
 - ٦ - الناحية السياسية في مشكلة الدين والعلم وجعله الدين حصناً للرجعية وجعله العلم حصناً لتقديمية حسب مايزعم من تسميات .
 - ٧ - مناقشة حرب ١٩٦٧ من الناحية الفكرية ووضع الدين في قفص الاتهام بالتخدير والتنويم .
 - ٨ - إقامة كيان من التصور المادي للكون .

(٢)

ضوابط البحث

- ١ - إن كل هذه النقاط التي ذكرتها سابقاً ملخصاً بها كتاب نقد الفكر الديني تدور حول مركز واحد ونقطة واحدة وهي فكرة (الله) وجوداً أو عدماً .
وإن كل مناقشة بين الفكر الديني والفكر الماركسي الذي جاء به الدكتور العظم لا يبدأ من هذه النقطة بالذات فهي مناقشة لاجدوى منها ، فليس كل ماخصته في النقاط السبعة الأخرى من كتاب نقد الفكر الديني إلا دائراً في فلك هذه النقطة الخطيرة المصيرية .
- ٢ - وإنني سوف لن أتعرض لأي دفاع عن النظريات الدينية في مسائل شتى جاء العلم - على حد زعم المؤلف بتكذيبها ، ولن أقف في أي موقف من مواقف الذين أرادوا أن يحلوا هذه المشكلة بين العلم والدين .
- ٣ - إن كل ماذكره المؤلف من النقاط السابقة يرتب المؤلف نتائجها على حسب مايتصوره من الانتصار الساحق في معركته تلك ، فهو الخصم والحكم ، والواقع أنها نتائج لبحث قد يكون المؤلف فيها هو الخاسر فتكون النتائج في غير صالحه ، وقد يكون العكس . . .
- ٤ - وينبغي أن يكون رائد كل باحث في أي بحث علمي ذلك المنهج العلمي الذي حدده الإنسان العاقل المفكر في كل زمان ومكان (إن كنت ناقلًا فالصحة ، أو مدعيًا فالدليل) .

(٣)

عناصر المناقشة

إنني سأبحث مع المؤلف هذه النقاط الخمسة التالية فقط - بميزان الفكر المنطقي السليم المبني على المسلمات البديهية فحسب .

١ - مناقشة فكرة وجود الله .

٢ - مناقشة مأساة إبليس .

٣ - العلم والفلسفة - الفرق بينهما ، ثم تقييم كل منهما .

٤ - نقطة النبوة التي لم يتكلم عنها المؤلف بشيء !! .

٥ - ماهي المصادر التي يجب أن يتبناها إنسان القرن العشرين في معلوماته عن الكون ؟ ...

وفي يقيني أن مناقشة هذه النقاط الخمس كافية لهدم كتاب نقد الفكر

الديني حجراً حجراً ...

مناقشة النقاط الخمس

١ - النقطة الأولى : وجود الله

يغالط المؤلف نفسه والناس جميعاً حين يذهب ليسأل : ماهي علة وجود الله^(١) وكأنه يقول : ماهي علة وجود مالا علة لوجوده ؟ وهو سؤال غلط متناقض لا يستحق جواباً .

ثم يغالطنا أيضاً حين يسأل عن علة وجود السديم ، ومتى سلّمنا بأن السديم هو أول موجود ؟ حتى نسأل عن علة وجوده ؟ ثم لو سلمنا عن علة وجوده لقلنا هو (الله) ولم نقف موقف الجاهل المشدوه الخجل الذي لا يدري مايقول . . . !

ولكن لو سألنا سائل ماهي علة وجود الله ؟ لقلنا له إن سؤالك هذا غلط متهافت لا جواب له لدينا ، لكن ليس جهلاً منا بالجواب بل إظهاراً لغلط السؤال وإعراضاً عنه ، إذ ليس كل سؤال يكون صحيحاً فيحتاج إلى جواب ، فلو سألنا سائل : ماهو الدليل على أن خمسة في خمسة تساوي عشرين ؟ لما كان جوابنا له إلا الإعراض والاستهزاء . . .

فالعقل السليم لا يقبل أن يكون السديم - على تقدير كونه أول موجود - خالقاً ومخلوقاً بأن واحد لأنه شيء مادي محسوس ، وكل ماكان كذلك فهو حادث ولا بد له من محدث ، فالسديم لا بد له من محدث وهو (الله) ولكن العقل السليم لا يقبل أبداً أن يُسأل عن خالق الله ، لأن الله ليس مادة محسوسة حتى يُسأل عن موجد لها بل هو الذي لا يشبه شيئاً من

(١) نقد الفكر الديني ص ٢٨ وما بعدها .

مخلوقاته ولا يدخل تحت الحصر ومعرفة الكنة والطبيعة الإلهية ، ولهذا فلا موجد له ، لا هو أوجد ذاته ولا أوجد غيره ، ولو كان الأمر غير ذلك لبطل كونه إلهاً وصار حادثاً من الحوادث لأن من احتاج إلى محدث فهو حادث ، فكيف يغالط المؤلف تلك المغالطة الكبرى حين يسمي موجد الأشياء ومصدرها الأول (الله) ثم يذهب فيسأل عن موجد ؟ !! ، على أن هذه المغالطة كانت صحيحة على وجهها حين السؤال عن موجد السديم الموجود الأول - وذلك للاختلاف الكلي بين السديم وبين الله .

٢ - النقطة الثانية : مناقشة مأساة إبليس

آ - طالما أن قصة إبليس من صلب الفكر الديني فوجب التقيد بأصول هذا الفكر حين مناقشة هذه المسألة ووضعها على بساط البحث ، سواء كنا نؤمن بهذا الفكر أم لا ، فالأمانة العلمية توجب علينا أن نتقيد بالمصادر الأصلية الأساسية للفكر الديني الإسلامي في كل مشكلة يكون مصدرها هذا الفكر بالذات ، واستبعاد ماعدا هذه المصادر الأساسية كما يقتضيه أصول الفكر الديني الإسلامي .

ب - وإن أصول هذا الفكر الديني الإسلامي توجب علينا أن نتخذ القرآن المصدر الوحيد للغيبيات واعتماد السنة شارحاً له ومكملاً . واستبعاد كل ماعدا ذلك ، لأن مشكلة إبليس وشخصيته من أمور الغيب ولا يصح فيها إعمال الرأي والاجتهاد وماشابه ذلك ، ولا يمكن في حال المحافظة على الأمانة العلمية إلا اعتماد النصوص القرآنية والنبوية لا غير في هذا الموضوع ، حتى ولو لم نكن مؤمنين بالقرآن أو السنة على أنها نصوص مقدسة .

ج - فالقرآن لا يجعل من السجود الذي أمر الله إبليس به لآدم سجود عبادة من إبليس لآدم حتى تتم لإبليس حجة على الله بقوله (إنك نهيتني عن السجود لغيرك ثم أمرتني بالسجود لآدم فلن أسجد له تنزيها لك!!) فهذه حجة داحضة أصلاً ، لأن هذا السجود الذي أمر به إبليس والملائكة إنما هم سجود تحية وتكريم لاسجود عبادة وشرك !! وآية ذلك أن الملائكة وإبليس معهم أهم صفة من صفاتهم أنهم عباد لله عز وجل ويستحيل أن يأمر الله عباده بالشرك والكفر والسجود لغيره على جهة العبادة (ولا يرضى لعباده الكفر) على أن سجود التحية والتكريم كان جائزاً في شريعة آدم ومن بعده من النبيين ثم نسخته الشريعة المحمدية .

د - فإبليس لم يكن له عذر ولا حجة في عدم السجود من جهة اجتهاده في تنزيه الله وإفراده بالعبادة والسجود ، فالله لم يأمره بالسجود عبادة لآدم أو اعترافاً بألوهيته . ومتى كان الله عز وجل يأمر عباده بالاعتراف بألوهية غير ذاته العلية ؟ ! بل أمره وأمرهم بالسجود تكريراً لصنعتة سبحانه ، فإذا سجد الملائكة فقد أطاعوا ربهم كما يطيع البشر ربهم بالسجود للكعبة ، وآدم إنما هو قبلة السجود بالنسبة للملائكة وإبليس ، وليس هو المسجود له ، كما أن الكعبة هي قبلة السجود بالنسبة للبشر وليست هي المسجود له كما أن السماء هي قبلة الدعاء وليس الله في السماء ولا في غيرها

هـ - فما هي علة عدم سجود إبليس ؟ ! إن العلة تكمن في تكبره وإعجابه بنفسه حين قال محتجاً على الله (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) وكان هذا الكبر والعجب موجبين لطرده وخذلانه . وليس هنالك غير هذه العلة إطلاقاً ، فشأن إبليس كشأن كل كافر جاحد حين يؤمر بالسجود إلى قبلة الصلاة وهي الكعبة فيحتج قائلاً (إن الكعبة من حجارة وجاد وأنا من لحم ودم فأنا خير منها) فهل يكون مقصوده بهذا الكلام غير الامتناع عن

طريق الكبرياء ، وآية ذلك قول إبليس (أنا خير منه) فهذه الكلمة قرينة قطعية تفيد إبعاد معنى علة التنزيه عن إبليس واعتقاد علة الكبر والعجب مانعة له من السجود لأدم دون غيرها .

و- على أن هذا الأمر بالسجود لا ينافي القول بوجود المشيئة بعدم السجود بالنسبة لإبليس ، فالله عز وجل أمر إبليس بالسجود ، والذي تم إنفا هم عدم السجود ، فعدم السجود مراد من الله عز وجل ، والسجود مأمور به وهما أمران لا يتنافيان ، فإذا عرفنا معنى الأمر ومعنى المشيئة زال الإشكال ، فالأمر من الله عز وجل هو للظاهر والمشيئة هي للباطن تنتج آثارها على الظاهر بما تقتضيه الإرادة فمشيئة الله في الباطن عدم سجود إبليس وأراد الله في الظاهر نتائج المشيئة وهي الإرادة فكان عدم السجود ، علماً بأن الله عز وجل أمر إبليس بالسجود في الظاهر وإبليس لم يأتمر ، وهذا الشأن ليس شأن إبليس فقط بل هو شأن كل عاصٍ أو كافر من البشر فالله عز وجل أمر الناس جميعاً بالاعتراف له بالألوهية وبأن يكونوا مؤمنين به موحددين له مؤمنين برسالاته فآمن من آمن وكفر من كفر فالكافرون شاء الله لهم عدم الإيمان وأرادهم لكنه أمرهم بالإيمان قال تعالى ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ وقال تعالى ﴿فعال لما يريد﴾ وقال تعالى ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ .

فهل يستطيع أحد إقامة الحجة على الله بذلك ؟ ! الحق أنه لا حجة لأحد على الله أبداً في هذا الأمر لأمرين :

١ - أحدهما أن العبد حين يؤمر بالإيمان أو السجود أو غير ذلك هل يعرف ما شاء الله له من السجود أو عدمه ، من الإيمان أو عدمه ؟ ! طبعاً لا يعرف فكيف يبني عصيانه على المشيئة الإلهية ويرى نفسه ويتهم الله بذلك ؟ !

٢ - والثاني : أن هذا العبد كائناً من كان حتى إبليس إنما هويته الأولى (كونه عبداً) بدليل أننا برهنا في النقطة الأولى على قضية الألوهية ، والعبد عبد لا حجة له على الله فهو مملوك له ملكاً حقيقياً يفعل فيه مايشاء فليس ظلماً إلا ما يكون تعدياً على حق الغير ، والعبد ملك تام لله عز وجل والتصرف فيه حق لله ليس من الظلم في شيء فكل ماكان من شأن إبليس إنما هو عين العدل الإلهي ، أليس إبليس وماملكت يدها لسيده ومولاه ؟ ! .

٣ - النقطة الثالثة : العلم والفلسفة : الفرق بينهما وتقييم كل منهما :

إن كل ماأتى به المؤلف إنما هو فلسفة وليس علماً ، ولأجل فهم هذا الكلام لابد من تعريف كل منهما .

١ - الفلسفة : هي مجرد أفكار مبنية على الاستدلال عن طريق الاستقراء أو الاستنتاج النظريين .

٢ - والعلم : هو نتائج مبنية على الاستدلال عن طريق الاستقراء التجريبي فقط دون الاستنتاج النظري .

(٢) يقول المؤلف (إن مواطن الخطر التي ينبغي على الدين الإسلامي تحريمها وحماية العقول منها هي نظرية التطور في العلوم ، الحريات العامة في التاريخ - الثورة الفرنسية خاصة - كروية الأرض ودورانها) ص ٤٢ من نقد الفكر الديني ولست أدري ما علاقة الحريات العامة في التاريخ والثورة الفرنسية بالعلم من جهة ومتى كانت علماً ؟ وما علاقة ذلك كله بالإسلام من ناحية التناقض بين العلم والدين ؟ أما كروية الأرض ودورانها فأمر إن لم نقل إن الإسلام قد سبق إليه فقد سكت عنه ولم يتعرض له لا بنفي ولا بإثبات ونحن نتحدى الكاتب أن يأتي بآية واحدة تدل على نفي نظرية دوران الأرض وكرويتها ، أما نظرية التطور فليست نظرية بل هي فرضية غير صحيحة إذ لا برهان على صحتها فليست علماً اهـ .

وعلى هذا فيمكن للفكر الديني أن يتناقض مع الفلسفة ولا يمكن أبداً أن يتناقض مع العلم لأن الفلسفة إنما هي نتائج أفكار الفلاسفة وعقولهم وهي قد تصيب وقد تخطئ ، أما العلم فالصحيح منه إنما هو مجرد نوااميس للوجود ليس للعلماء فيها إلا فضل الإظهار والاكتشاف ، أما الفلسفة فالواضع لها عقل الفيلسوف .

فالدين الصحيح بما أنه وضع الله عز وجل جعل الله فيه من المرونة ما يجعله متمشياً مع النظريات العلمية مهما كان أمرها بشرط أن تكون صحيحة من الناحية العلمية التجريبية .

إذ يستحيل أن يتناقض وضع الله عز وجل للدين مع وضع الله سبحانه لنوااميس الكون !! وكل تناقض بينهما إنما هو من سوء فهم الدين أو من عدم صحة النظرية العلمية ولا ثالث لهما الفرضين من ناحية ما يوجب العقل السليم أبداً .

على أن المؤلف يخلط بين مفهوم العلم والفلسفة فيسمي الفلسفة علماً في كثير من الأحيان ، وهي ليست بعلم ، مثال ذلك نظرية النشوء والارتقاء التي أتى بها داروين فهي من الفلسفة وليست من العلم لأنها لازالت في حيز الفرض والتخمين والظن ولم تكتمل فيها أبداً عناصر النظرية العلمية ، ومع هذا يجعلها المؤلف نظرية علمية ويحاول إظهار التناقض بينها وبين المفاهيم الدينية^(٣) !!؟ .

٤ - النقطة الرابعة : نقطة النبوة التي لم يتكلم عنها المؤلف

بعد أن تم لنا أول النظرية وآخرها ، بإقامة البراهين الواضحة اليقينية على قضية الألوهية وعلى موضوع إبليس ، بعد ذلك كله نستطيع أن نقول إن نظرية الألوهية - أي وجود إله للكون وكل هذا الوجود هو بته (عبد) لله عز وجل حق لا مرية فيه .

وكون الوجود عبداً لله عز وجل يقتضي أن الله سبحانه إله يتسم بكل صفات الألوهية من العدل وغيره ، وهذا الوجود كما نرى يتظالم بعضه مع بعض والمظلوم تنقضي مسرحية الحياة ولانراه يأخذ حقه من ظلمه ، وهذا ليس من العدل في شيء ، فليس الأمر مقتصراً على هذه الحياة الدنيا فقط بل لابد من حياة أخرى يقتص للمظلوم من ظلمه ، وإلا كان هذا التظالم مع عدم الاقتصاص دليلاً على عدم وجود العدل الإلهي مما يتناقى وصفات الألوهية الكاملة .

فوجب القول بوجود اليوم الآخر ووجود حساب وعذاب ونعيم وغير ذلك ، وهذا يقتضينا القول بأن العباد مكلفون من الله بتكاليف سيحاسبون عليها ، وهذه التكاليف لا يمكن للعقل السليم القول بأن الله يستطيع تبليغها للناس مباشرة لاختلاف كنه البشر عن ذات الله عز وجل إذ لو كان ذلك لما كان إلهاً ولأشبهه المخلوقات فصار حادثاً وبطلت الألوهية وهذا مستحيل لما تقدم .

إذن لابد من وجود وساطة الملائكة بين الله وبين قوم من البشر اكتملت فيه صفات ممتازة أهلتهم للقيام بمهمة الوساطة بين الملائكة والله عز وجل من جهة . وبين البشر من جهة أخرى ، وهم الأنبياء . هذا من جهة العقل .

أما من جهة النقل فقد ثبت بالتواتر الذي لا يداخله شك أن قوماً ادعوا النبوة^(٣) فطالبهم قومهم بالمعجزات فأتوا بها مع كون قومهم يعلمون السحر ، فلو كان سحراً لكشفوا أعمالهم هذه ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا عن المعجزات شيئاً إلاّ التكذيب اللفظي فثبت يقيناً أن هؤلاء أنبياء .

(٣) لا يستطيع إنسان في الوجود أن يكابر في هذه الحقيقة ، ومن يكابر بها فإنه أحق بإجماع العقلاء .

وهكذا ثبتت النبوة يقيناً من طريق العقل والنقل تصديقاً للمنهج العلمي (إن كنت ناقلًا فالصحة أو مدعيًا فالدليل) .

٥ - النقطة الخامسة : ما هي المصادر التي يجب أن يتبناها إنسان القرن العشرين في معلوماته عن الكون ؟!

بعد أن عرفنا أنه لا تناقض بين الفكر الديني الصحيح - أي الإسلامي - وبين النظريات العلمية الصحيحة كان لنا أن نتبنى كلا الأمرين مصدراً لمعلوماتنا عن الكون .

فنأخذ الفكر الديني الإسلامي أساساً وخطأً عريضاً يدعوننا دائماً للتجربة والاكتشاف ، ثم نذهب فنكتشف ونثبت النظريات العلمية الصحيحة ونبرهن عليها معتمدين على عناصر النظرية العلمية وشروط توفرها .

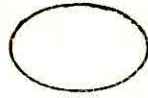
وإني أتحدى كل من يستطيع أن يظهر تناقضاً واحداً فقط بين الإسلام وبين النظريات العلمية الصحيحة التي اكتملت فيها عناصر النظرية وشروطها .

على أنه يجب أن نعلم أن النظرية العلمية قابلة لظهور خطأ فيها لأن الذي اكتشفها على حالة ما رجلٌ من العلماء الطبيعيين ، وقد يكون في اكتشافه نوع خلل أو زلل ، فلا ينبغي تخطئة النظرية الدينية فوراً بل لابد من معاودة النظر في النظرية العلمية حتى يتبين وجه الصواب فيها .

فكم رأينا نظريات علمية عاشت فترة من الزمن في الجامعات تُدرس على أنها حق وصدق ثم جاء عالم آخر فنقضها رأساً على عقب وأثبت خلافها . وهو أمر معلوم عند دارسي علوم الطبيعة .

وبعد ؛

فلا حاجة لنا بعد ذلك إلى مناقشة المؤلف في باقي نقاط كتابه التي
لخصتها في بدء البحث لأنه متى تبينت هذه النقاط الخمس سقط ما عدا
ذلك عند العقلاء ، وكلامنا إنما هو بين الدين والعلم لا بين الدين والسياسة
المحلية فللسياسة المحلية رجال وللدين والعلم رجال
ولكن يا أبناء قومي هل أوصل لنا هذا المطر إلا ذلك السحاب ؟ وهل
نحصد اليوم إلا ما كنا زرعناه بالأمس ؟ والسلام .



على أعتاب رمضان

أثر الصبر والحرمان في الأمم والشعوب
في النجاة من ويلات المثلثات وسنن التاريخ

يَطِيبُ لَنَا فِي هَذَا الشَّهْرِ الْأَغْرُ شَهْرَ الصَّبْرِ وَالنَّصْرِ . . شَهْرَ بَدْرِ ، وَفَتْحِ
مَكَّةَ ، شَهْرَ الْقُرْآنِ وَالْغَفْرَانِ ، يَطِيبُ لَنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ عَوَامِلِ النَّصْرِ لَدَى
الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ ، وَعَوَامِلِ ازدهار حضاراتها ، ثُمَّ مَا هِيَ عَوَامِلُ الْهَزِيمَةِ لَدَى
هَذِهِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ وَغُرُوبِ حَضَارَاتٍ بَعْدَ شُرُوقِ ، وَمِنْ ثَمَّ انْدثَارِ هَذِهِ
الْحَضَارَاتِ وَتَجَاوُزِ التَّارِيخِ إِيَّاهَا ، وَذُبُولِ وَجُودِهَا الْفَاعِلِي وَالْأَنْفَعَالِي بَعْدَ ذُبُولِ
وَجُودِهَا الْحَضَارِيِّ ، يَعْقِبُ ذَلِكَ فَنَاءُ تِلْكَ الْأُمَمِ وَانْتِهَائُهَا مِنْ عَلَى ظَهَرِ هَذَا
الْكُوكَبِ لِتُصْبِحَ فِي ذِمَّةِ التَّارِيخِ ، وَمَا هِيَ الْقَوَانِينُ الْحَاكِمَةُ لِهَذَا كُلِّهِ مِنَ الشُّرُوقِ
إِلَى الْغُرُوبِ ، وَمِنْ الْقِيَامِ إِلَى الْفَنَاءِ ، وَمِنْ الْوِلَادَةِ إِلَى تَارِيخِ إِعْلَانِ
الْوَفَاةِ . . . ؟!

لَا بُدَّ لَنَا إِذَا مِنْ أَنْ نَعْرِفَ هَذِهِ الْقَوَانِينُ الْحَاكِمَةَ لِهَذَا الْمَسَارِ فِي الْحَضَارَاتِ
الْإِنْسَانِيَةِ بِعَامَةٍ لِيَتَسَنَّى لَنَا أَنْ نَعْرِفَ مَدَى انْطِبَاقِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الْكُونِيَّةِ عَلَى أُمَّتِنَا
الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَإِلَى أَيِّ مَدَى سَارَتْ أُمَّتُنَا فِي مَاضِيهَا الْمَجِيدِ فِي مَضَارِ
النَّصْرِ وَعَوَامِلِهِ وَأَسْبَابِهِ ، ثُمَّ كَيْفَ أَصْبَحَتْ فِيهَا بَعْدَ تَتَرَاوَحِ بَيْنِ مَدِّ النَّصْرِ وَجَزْرِ
الْإِنْحِسَارِ الْحَضَارِيِّ إِلَى هَذَا الْعَصْرِ . .

الْأُمَمُ كَالْأَشْخَاصِ كَانَتْ حَيَّةً لَهَا وَلَادَةٌ وَطِفُولَةٌ وَفَتَوَةٌ وَشَبَابٌ ثُمَّ كَهُولَةٌ
وَشَيْخُوخَةٌ وَوَفَاءٌ ، تَحْكُمُهَا سُنَنٌ وَقَوَانِينُ كُونِيَّةٌ كَمَا تَحْكُمُ الْأَفْرَادَ الْإِنْسَانِيَّةُ قَوَانِينُ
وَسُنَنٌ مِمَّاثِلَةٌ ، وَقَدْ دَرَسَ عُلَمَاءُ الْجَمْعِ هَذِهِ السُّنَنَ وَالْقَوَانِينُ وَضَبَطُوهَا وَأَقَامُوا
مِنْهَا عِلْمًا قَائِمًا بِذَاتِهِ هُوَ (عِلْمُ الْجَمْعِ الْإِنْسَانِيِّ) وَمِنْ أَوَائِلِ مَنْ كَتَبَ فِيهِ الْقَاضِي
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خُلْدُونٍ فِي (مَقْدَمَةِ التَّارِيخِ) ، وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ ابْنَ خُلْدُونٍ
الْمُؤَرِّخَ الْعَرَبِيَّ الْإِسْلَامِيَّ الْكَبِيرَ لَيْسَ فِي عِلْمِ الْجَمْعِ هَذَا بِأَكْثَرَ مِنْ سِيَوِيَّةٍ فِي
النَّحْوِ وَالْخَلِيلِ فِي اللُّغَةِ وَالْعَرُوضِ ، وَالشَّافِعِيِّ فِي أَصُولِ الْفَقْهِ ، جَمَعُوا
الْمُتَفَرِّقَاتِ ، وَضَبَطُوا الْجُزْئِيَّاتِ ، وَقَعَّدُوا الْقَوَاعِدَ وَأَقَامُوا أُسُسَ الصَّنَاعَةِ ،
لَكِنْهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَأْتُوا مِنْ حَيْثُ الْجَوْهَرِ وَالْمُضْمُونِ بِجَدِيدٍ ، وَهَكَذَا صَاحِبُنَا

ابن خلدون له الفضل الكبير في الملاحظة والمقارنة ونَصَبِ الضوابط وإقامة القواعد ، ووضع الكليات وما إليه ، لكن القرآن الكريم كان بحق أول من تكلم في هذا الشأن ولَفَت إليه الأنظار ، بل وأقام المعايير الضابطة لهذا المسار الإنساني للجماعات الإنسانية ، وحَدَّث عن السُنن والقوانين الحاكمة له ، وقد سَمَّى القرآن الكريم ذلك كله باسم (المثلثات) وما أشبهها في كثير من الآي في الذكر الحكيم .

والذي يَعْنِينَا من هذا الذي ذكرتُ ما يَخُصُّ هذه الأمة التي اختصها الله تبارك وتعالى بخصائص ليست لغيرها من الأمم ، فمن ذلك خصاها وسَجَاياها المعروفة ، وأخلاقها الكريمة تَوَجَّ ذلك كله كون الرسالة السماوية الخاتمة منها مكان القرآن الكريم عربياً والرسول العالمي الخاتم عربي ، والعرب هم رهط النبي ﷺ وعشيرته ، فكانت بذلك الأمة العربية مرشحة لتبوء مركز الإمامة بين الأمم والشعوب ، وتقوم بالأستاذية والريادة مصداقاً لقوله تعالى ﴿وَإِنَّ لَذِكْرَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ ، وقال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ .

ألا وإنَّ القانون الحاكم لمسار الأمم والشعوب والجماعات الإنسانية في دور انبثاقها وشروق شمس الحضارة فيها هو بالذات الذي يحكم مسار الأمة العربية بالذات ، ألا وهو انبثاق العقيدة الصحيحة فيها ، والتزام الأمة بأسرها بهذه العقيدة والجهاد دونها بالنفس والنفيس حتى تصبح هذه العقيدة كُلُّ هذه الأمة وجوهرها وذاتها وكيانها ، لاقِيَامَ لها بدونها ، ولأوجودَ لها يُتَصَوَّرَ إلا بوجودها ، فإذا صَاحَبَ ذلك امتحانُ قاسٍ فيه أنواعٌ من الألم والحرمان ، انبثق من لوعة الألم ، ومرارة الحرمان شرارة النصر ، واشتعلت من هذا الاحتكاك القاسي شُعلة الظَّفَر ، ألا وإن النصر مع الصبر ، والظَّفَر مع الألم ، والسعادة من الحرمان ، ونِعَم الأستاذ في مدرسة الحياة الصبر ، ونِعَم الصحاب في صحراء

الحياة وتيهها الأُم ، ونعمَ المعلّم الحرمانُ . . وما أجل قول أحد أكابر العارفين رضي الله عنه ﴿ربما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك﴾ .

أيها الإخوة الأحبة ؛ نشدُتكم أن . . هل وُلد العظماءُ إلا في أحضانِ المرارة ؟ وهل وصلوا لما وصلوا إليه إلا بالصبر والمصابرة ؟ وهل قامت صروحُ المجد والعزة إلا بعد تَجَرُّعِ كؤوسٍ من حنظل الكفاحِ المرير ؟ ! ولا والله إذا لم تتعلّم الأجيالُ مع لبّان المهّد ومع القراءة والكتابة ، ومع أسماء الأشياء ، إذا لم تتعلّم معاني الدفاع عن العقيدة وقيم الأُمّة وبذل كلِّ شيء في سبيل بقائها ، لأنّ بقاءها بقاء كلِّ شيء ، وذهابها ذهاب كلِّ شيء إذا لم يكن ذلك فلا تنتظر شيئاً ، فليس وراء ذلك شيء .

وبيقين من هذا التبصّر انطلقت مواكبُ الحضارة العربية الإسلامية تبدّد حُلُك الظلام بأنوار من العلم الصحيح والتمدن والرقى الاجتماعي تحمل المصحف بيد والسيف بيد ، وبيقين من هذا التبصّر أدرك الرعيّل الأول من المسلمين الأوائل ما ينتظرهم من أعباء هداية البشرية وإنقاذها من براثن الطواغيت والجاهلية ، وعرفوا دورهم في الحياة ، فَبَزَغَ فجرُ الحضارة العربية الإسلامية في حرّاء بالبعثة المحمدية في شهر رمضان ، وليس عبثاً هذا التوقيت ولا مصادفةً ، بل هو على أمرٍ قد قُدِر ، وأشرقت شمسُها في الهجرة إلى المدينة المنورة وما أعقب ذلك من بدر الكبرى وفتح مكة ، فكان العهد النبويّ كلّهُ شروقاً لشمسٍ سَطَعَتْ أنوارها على أرض طال ليلُها واشتدّ حُنْدَس ظلامها ، ولا غرورَ فالنور يسطع من غيب الظلام وحُلُك الليالي ، وقد توافَق بزوغ فجر الإسلام وشروق فتوحاته الكبرى في رمضان لأنّ فيه صبراً وحرماناً واختباراً للنفس الإنسانية وامتحاناً ، وهل قبل سيدنا طالوت من أصحابه للجهاد ليقاتلوا جالوت وجنوده إلا من حرّم نفسه باردَ الشراب بعد ظمأ شديد أو أغترفَ غرفةً بيد فما بقي من تلك الألوف الناعمة المترفة إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً

على عدد أهل بدر؟ وهؤلاء هم الذين يستحقون وسام النصر ووشاح المجد والظفر، لأن النصر الحقيقي هو نصرٌ داخليٌّ في جوهر الإنسان وحركة ذاتيةٌ يُسجَّل فيه المرء انتصاراً على نفسه وشهواته التافهة، فتَقَوَّى عزيمته وتَشَدَّدَ شكيمة، وماهزيمةٌ إلا هزيمة الإنسان أمام نفسه، وما النصرُ إلا انتصارُ الإنسان على نفسه . .

ولقد جرت السُّنن الكونيةُ في الجماعات الإنسانية جَرَيَانَهَا في الأفراد بل في عالم الجهاد والحيوان والنبات، فكم من جوعٍ يَعْقِبُهُ حكمةٌ، وكم من شَبَعٍ عاقبته الهلاك، وكم من رَخَاءٍ يكون بريداً للدمار والخراب، وكم من حرمانٍ يَعْقِبُهُ يَقْظَةٌ وحياءٌ صالحةٌ، وأنتَ تَرى في عالم الحيوان العَلَقَ يكمن سرُّ هلاكه في شرهه للدم، وهكذا الأمم والشعوب، والدُّوَلُ، فما بادت حضارة الأندلس إلا بَعْدَ أن سقط الجميع في بُلَهْنِيَةِ العيش والاستمرؤوا المحرمات، واستطابوا الرَعْدَ من زينة الحياة الدنيا فَرَكَنُوا إِلَيْهَا وَصَعِبَ عَلَيْهِمْ فَرَاقُهَا فَذَهَبَتْ مِنْهُمْ وَمِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ بِلَادُهُمْ وَأُوطَانُهُمْ وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ حَضَارَتُهُمُ الْمُتَعَفِّفَةُ شَيْئاً، ووقعوا في ويلات المثالات وأدركتهم سنن التاريخ، والتاريخ لا يرحم .

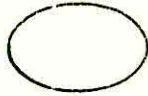
وأما من تاريخنا الإسلامي أمثلة كثيرة كالأندلس وهي دولة إسلامية بقيت على ذلك قروناً فأين هي الآن؟ وبلاد صَقْلِيَّة وبلاد البلغار ودونك فلسطين؟ أين هي اليوم؟!

وفي القرآن الكريم إشارات واضحة إلى الأمم السابقة لتأخذ هذه الأمة الدروس والعبر من غير الأمم دون أن تخسر من حسابها الخاص، أمم كانت أشد منا بَأْساً وَخَطَرًا ثم بادت وأنتهى ذكرها من ألسنة الناس إلا ما جاء به القرآن الكريم وما هو مكتوب على الدين والأطلال والحجارة والخرائب، بزغ فجرها في بعض حقب التاريخ ثم أشرقت حضارتها وسمت وسفت ثم غربت وغطست في يم الوجود كأن لم تغن بالأمس، و يسלט القرآن الكريم الأضواء على

القروانين التي حكمت مسارها في التاريخ من ظهور إلى اختفاء ، ومن شروق إلى غروب ، إنها ذاتها تلك الدساتير التي تحكم اليوم مسارنا التاريخي ؛ تعفن الحضارة ، وفسادها وانقلابها من حضارة إنتاجية إلى حضارة استهلاكية ، انقلاب المفاهيم لدى الأمم الأغلب من الناس بحيث لم يفهموا أبداً ما حل بغيرهم من الأقوام البائدة في خرائب التاريخ ، فساروا على النهج ذاته ؛ بحيث أضحي المقصود الأعظم لديهم ترف العيش ورغده والانبساط إلى اقتناص اللذات بنهم وشره عجيبين ، والعيش في واد من الأحلام وسط ألحان حاملة يغطون في سكره الحياة وهوها ، بدلاً من تسخير الحياة وما فيها نحو حقائق التقدم والرقى الإنساني الحضاري الصحيح في مضمار تسخير كل مافي السموات والأرض للإنسان الفاضل الذي يبني بدينه وقيمه وأخلاقه وجهاده المدينة الفاضلة التي أرادها لبني الإنسان .

أما بعد ؛

فحين يكون معنا من الله عز وجل نور يضيء لنا دروب المجد والعز والسؤدد نتبصر بذلك مهتدين بكتاب ربنا مستنيرين بما فيه من القواعد الخالدة الباقية مابقي الزمان لأنها حق ، وصدق الله تعالى إذ يقول في كتابه المجيد (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات ، وإن ربك لذومغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب) صدق الله العظيم .



إنزال الناس منازلهم

في الخطاب

من

الحكمة النبوية البالغة

اتفقت عقول العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلوم العلماء ، وحُكْمُهُ أصحاب الدَّرْبَةِ والتَّجَرِبَةِ على أن كَسَبَ القلوب أعظم وأكبر وأبعد أثراً من كَسَبِ المواقف ، وأشدَّ حَظْراً . . . وأنفع في العلاقات الإنسانية ، ومن أبرز العوامل الداعية إلى كسب قلوب الناس لِنُ الخطاب وأدب الحديث ، فمن رزق ذلك فقد رُزِقَ جوامع الخير ومجامع الحمد ، قال تعالى في هذا الشأن ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وقال تعالى ﴿وَلِيَتَلَطَّفْ﴾ . وقال جل شأنه ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ . ووصف الله تعالى نبيّه صاحب الرسالة الخاتمة محمداً ﷺ بقوله ﴿فَبِإِذْنِهِ مِنْ اللَّهِ لُنتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ . وهذا الأصل يجب أن يكون جارياً مع الخلق كُلِّهِم بِالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَلِيَن الْكَلَامِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ (الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحْبَبُهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ) ، ويزداد التوكيد على هذا الأمر من الشارع الحكيم فيما إذا كان الخطاب حقاً يُطالب به أو نصيحة تُسدى ، فالحق مُرٌّ ، والنصيحة ثقيلة على النفوس ، فينبغي على الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر أو الناصح أن يمزج كلامه بحلاوة في الخطاب ، وطلاوة في الكلام ، وعذوبة في الألفاظ ، وَشَفَقَةٍ فِي الْأَحَاطِ لِيَتِمَّ لَهُ مَا يَرِيدُ ، وَيَصِلَ لِغَايَتِهِ ، فَيُؤَثِّرَ كَلَامُهُ فِي النَّفُوسِ وَتَنْفَعَلَ لَهُ الْقُلُوبُ ، فِيرْجِعَ بِهَا إِلَى عَلَامِ الْغُيُوبِ . فالمرشد أو الداعية إلى الخير طبيب وليس قاضياً ، والطبيب رحيم ، وسيد أطباء القلوب الرسول الأعظم ﷺ الرؤوف الرحيم .

ولقد وصَّى الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه تلميذَهُ أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري وهو على فراش الموت بوصية جامعة كان منها (وإِنَّكَ يَا يَعْقُوبُ سَتَدْخُلُ عَلَى السُّلْطَانِ فَانْصَحْ لَهُ وَلِيَكُنْ سَرّاً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، وَلَا تَنْصَحْ لَهُ أَمَامَ النَّاسِ فَتَفْضَحْهُ ، وَأَعْطِهِ حَقَّهُ مِنَ التَّكْرِيمِ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ ، وَاخْتَرِ مِنَ الْأَوْقَاتِ مَا يَكُونُ فِيهِ مَرْتَحاً الْبَالُ مُقْبَلاً عَلَيْكَ ، وَاخْفِضْ لَهُ جَنَاحَ الرَّحْمَةِ

والشفقة له يَنْتَفَعُ بذلك إن شاء الله) قال الإمام أبو يوسف : فَلَوْصِيَةُ الإمامِ لي خَيْرٌ مِنَ العلم الذي تَعَلَّمْتَهُ منه على كثرته . هذا ؛ ولقد كان هذا الهدى هَدْيَهُ ﷺ في أدب الخطاب ولين الحديث ولاسيما إنزال الناس منازلهم وإعطاءهم حقوقهم الاجتماعية العامة والخاصة غير مُنْقَوِصَةٍ تَأْلَفُ لِقُلُوبِهِمْ وَكَسْباً لِمُودَتِهِمْ والتودُّدُ نصف العقل ، فكيف وسيدنا محمد ﷺ أرجحُ الناس عقلاً بشهادة الخصوم والأَنْصار معاً ؟ فكانت منه تلك السياسةُ الحكيمةُ مدرسةٌ متميِّزةٌ متفوّقةٌ آتَتْ أَكْلَهَا في إرشاد الضال وتعليم الجاهل ، وردَّ التائه ، وحفظ ذوي الهيئات ، وتكريم ذوي المكانة الاجتماعية المعروفة لهم ، فكان يُكْرَمُ رؤساء الأقباط ولو لم يدخلوا في دينه ويحفظ لهم كرامتهم ويُجلِّسهم إلى جانبه أو يدفع لهم بعباءته ليجلسوا عليها إذا لم يتمكَّن من الأولى ، ويُرسَل إليهم رسلُ والسُّفراءُ الأذكياء النجباء بأحسن الرسائل وأبلغها يكتبها له كُتَّابُ الوحي من الصحابة ويَمَهِّرُها بخاتمه الفضي الخاص ، وكان مما كتب لملوك اليمن المشركين إلى الأقيال الْعَبَاهِلَةِ من آل حضر موت) أي (الملوك العظماء) أو (الكبار لدى أقوامهم) ، وكان في كل ذلك المثل الأعلى للحكمة والحصافة حتى إنه أمر أصحابه بذلك بما أثار عنه (أَنْزَلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ) وفي روايةٍ عن السيدة عائشة رضي الله عنها قال (أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُنْزَلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ) ، والله تعالى يقولُ (وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) وقال جل شأنه (وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) .

ولقد ؛ دَرَجَ العلماءُ الأجلاء خَلْفاً عن سَلَفٍ على التخلُّق بهذا الأدب الحميدِ فَحَمِدُوا عَاقِبَتَهُ ، وكانوا في ذلك كالأقمار يكْمُلُ بعضها نورَ بعض ، وكالزهور والرياحين في الروض الأنيق يَتَمُّ بمجموع ألوانها وأصْبَغِهَا أَشْكَالٌ من الجَمالِ المتألِّق يأخذ بالآلِباب ، وكانوا يَصْدُرُونَ في ذلك عن مَلَقٍ ولا عن نفاق أو مجاملة كما تعود كثير من الناس وَمَعَاذَ الْإِيْمَانِ ، بل عن وِدَادٍ صادق وإعجابٍ من كُلِّ بَآخِيهِ بعلمه وفضله وَبُئِلَه وخُلُقِهِ ، فالجمالُ لديهم الذي يَتَهَلَّلُونَ له هو

جَمَالُ النفوس ؛ هو موافقة القول للحق ، والكَمَالُ مطابقة الفَعَال للصدق .
فالجميل لديهم كُلُّ شيءٍ رفيعٍ نال سُمُوًّا ورقياً فسماً وَسَمَقَ ، وَارْتَقَى في معراجٍ
من الأنوار . . . فاستحق الثناء والتقدير .

ومما سَجَلْتُهُ ذاكِرة التاريخ من أدب العلماء بعضهم مع بعض ، وَوَعَتُهُ
القلوبُ الواعية ، فكان سبيكةً من الذهب الخالص ، وواسطة العِقْدِ من الدرّ
الباهر ؛ فمن ذلك مارواه الربيع بن سليمان قال : (كتب الإمام الشافعي إلى
الإمام محمد بن الحسن وقد طلب إليه كتباً فأخّره فكتب إليه :

قل للذي لم تَرَ عَيْنُ	من	رَأَى	مِثْلَهُ
حتى كَأَنَّ من رَأَى	قد	رَأَى	قَبْلَهُ
ايَعْلَمُ ينهى أَهْلَهُ	أن	يمنعوه	أَهْلَهُ
لَعَلَّه يَبْذُلُهُ	لأهله		لَعَلَّه

قال فأنفذ إليه الكتب اهـ أي أرسلها له .

وكان بين الإمام الشافعي وتلميذه الإمام أحمد بن حنبل خارج دائرة
الدرس والإفادة صحبة ومودة وتقدير من كلٍ منهما لصاحبه ، ف قيل للإمام أحمد
ما تزال تقول الشافعي فمن هو الشافعي فقال (هو الله كالشمس للدنيا وكالعافية
للناس ، وهل استغنى الناس يعرف عن الشمس والعافية ؟) ، وقال الإمام
الشافعي في الإمام أحمد :

قالوا يزورك أحمد وتزوره
قلت المكارم لا تفارق منزله

إن زارني فبفضله أو زرتُه فلفضله ، فالفضل في الحالين لَهُ
وقيل للإمام أحمد ؛ أنت مثلك يأخذ بركاب الشافعي ؟ فقال : وأنت
إن أردت النجاح والتوفيق فخذ بالركاب الثاني إنه الشافعي . . . قلت : وهكذا
يعرف كُلُّ فضل الآخرين ويوقّرهم ، وَيُنْزِلُهُمْ مَنْزِلَهُمْ بالرغم من الخلاف في

الآراء والاجتهادات ، فعظموا في عيون الناس جميعاً ، ولقد كان الإمام سلطان العلماء العز عبد السلام يُفتي ويحدث في الشام ، وكان الحافظ المنذري كذلك يفتي ويحدث في مصر ، فلما دخل مصر امتنع المنذري عن الفتيا أدباً مع العز ، وامتنع العز عن التحديث أدباً مع المنذري رضي الله عنهما .

ولقد حَسَّنَ هذا الأدب الحجم وزَيَّنَ في الأسماع كونه خرج وعليه حُلَّةٌ من النُّور ، نور قلب المتكلم ، ذلك لأن هؤلاء زَيَّنُوا بواطنهم بالحكمة كما زَيَّنُوا ظواهرهم بالحليَّة ، فكانت سرائرهم خيراً من علانيتهم فإن فبالله عز وجل ولوجه الله وحده يَخْفَضُونَ جناحهم للمؤمنين ويتواضعون لخلق الله عز وجل وهذا هو أدب السلف في الخطاب والمعاشرة ، أما إذا كان ذلك لغاية دنيوية رخيصة فهو المَلَق ، وهو مذموم أما أدب الخطاب فهم محمود ، والفرق دقيق ، يقول الإمام أبو الحسن الماوردي رحمه الله (فإذا كانت لمحاسن الأخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فإن تجاوزها الحدَّ صارت ملحق ، وإن عدل مواضعها صارت نفاقاً ، والملقى ذل والنفاق لؤم ، وليس ولمن وسم بهما ود مبرور ولا أثر مشكور) .

ومن أجل ماقرأتُ من أدب القوم رضي الله عنهم وفقههم للحياة وللنفوس مقولةً في كتاب (عوارف المعارف) للسهروردي حيث يقول في شرح الحديث الشريف (أنزلوا الناس منازلهم) [أي عند أنفسهم] والمعنى «أنزل كل إنسان منزلته عند نفسه لا عندك مادام الأمر لا يخالف صحيح المنقول ولا صريح المعقول» وهو فهم دقيق لو أخذ به .

وبعد ؛ فمن ثمرات هذا الأدب الاجتماعي الإسلامي العظيم تألَّفَ قلوب الخلق وجمَّعها على الله عز وجل والدعوة إليه تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وزرع المحبة في الله في النفوس لتعمرها بالود والرحمة ، وما أشد حاجتنا

اليوم إلى ذلك في كل طبقة من طبقات الأمة وعلى جميع الصُّعد ، لاسيما كَلْ مشكلات الأسرة والعلاقات الأبوية والزوجية ومن أَمَرنا الله تعالى ببرهم من الآباء والأمهات و العلماء والفضلاء وذوي الشَّيْبَةِ في الإسلام .

هذا ؛ وإن التخلُّق بهذا الخُلُق الرفيع لَمِنْ علامات رجحان العقل وقوة النظر وسعة الفكر وتُعدُّ الغور ونُضج المحاكمات الذهنية في المرء ، ومما يدل أيضاً على قفهِ النفس وفهمِ مقاصد الشريعة وحكمها من تشريع الأحكام .

ولعلنا نتلافى كثيراً من الشقاق والاختلاف والتخاصم لو أخذنا بهذا المبدأ الرشيد فأعطينا الناس حقوقهم وافيةً وأقذارهم ، وأنزلناهم في المرتبة الإجتماعية اللائقة بينهم بلا وُكُسٍ ولا شططٍ ، ودون إفراط ولا تفريط ، وقصدنا بذلك كَسَبَ ودهم ، واجتذاب أفهامهم وعقولهم ، والدخول إلى قلوبهم لإلقاء بذرة الحكمة فيها فتحيا بعد مَوَاتٍ ، وتُجتمِعُ بعد شَتَاتٍ ، فبذُور الحكمة كالحَبِّ لا يُلقَى كلى الأرض إلا بعد حَرُّها وَقَلْبها وتهيئتها لذلك ، وإلا كان ذلك البَذَرُ كُلُّهُ عَبَثاً لا طائل تحته سَرَّعان ماتأكله الطير وتذروه الرياح .

أيها الناس ؛ في ديننا الحنيف هذا مبادئٌ قِيَمَةٌ ، وحكمةٌ بالغة ، ماأُحوج البشرية لها اليوم لتبني حضارتها المرتقبة على أسس متينة راسخة من القِيم الثابتة ، والقواعد العلمية المَحْكَمَة .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصرِ الله ينصر من يشاء .

أدب الإجازات

عند
علماء المسلمين

مدخل إلى البحث

لا ريب أن الحضارة الإسلامية الزاهرة في عصرها الذهبي عُصارة أدمغة مفكرة فذة أخذت ماصنعه الأقدمون من الأمم فارتشفته كما ترتشف النحلة الرحيق من الزهور تأخذ أحسن ما فيها ، ثم هضمته وتمثلته في نفسها حتى إذا ما اختمرت حلاوته أخرجته للناس عسلاً بارداً طيباً فيه شفاء للناس .

فليس العرب المسلمون مجرد تلامذة للأقدمين ولمن سلف ، ولكنهم كانوا جهابذة نوابغ استفادوا وأفادوا ، اقتبسوا وزادوا ، قلّدوا ثم ابتكروا ، ترجموا ثم صنفوا . أخذوا ثم أعطوا ، وهذا ما يفعله العالم الأمين الثبت ، وكانوا في كل ذلك الأمناء الأوفياء الأقوياء .

ولقد أحدثوا منهجاً للتعليم والتعلم كان في جلّه من ابتكارهم لم تعرفه الأمم السالفة ، أفاد منه الغرب فيما بعد حيث طوّر هذا المنهج فجعله فيما بعد انحسار المد الإسلامي العربي منهجاً عالمياً لنيل المعرفة واكتسابها ، وهو ما عليه العالم المتمدن اليوم مع بعض التعديل الطفيف .

هذا النظام التعليمي يعود في أساسه إلى علم أصول الحديث (علم المصطلح) ، أو ما يُسمّى بـ (علوم الحديث) وذلك بعامة ، وإلى طرق التحمل والأداء منه بخاصة ، وهو ما يعيننا ، وكان الأمر في ذلك أولاً يقتصر على فن الحديث النبوي ، ثم تعداه إلى فروع المعرفة ، بحيث أصبح منهجاً لكافة العلوم وفي جميع المدارس والجامعات .

ونحن في هذا البحث سندرس أصل الإجازة عند علماء الحديث وعند علماء الشريعة ، ثم عند عامة العلماء ، ثم نتكلم عن مكانة الإجازة في القديم والحديث وقيمتها ، ثم نتكلم عن التفنن في الإجازة من جهة الصنعة البيانية والبديعية وعن النواحي الجمالية من حيث هي قطعة إنشائية صدرت عن عالم

معتبر، ثم نتحدث عن الإجازة الشعرية ونضرب عليها بعض الأمثلة ، ثم نبحت في أهم خصائص الإجازة بعامة في الماضي والحاضر ، ثم عن مصير الإجازة في المستقبل من الزمان . كل ذلك مع أمانة النقل والعزو إلى المصادر حيث ورد النقل مصداقاً للقانون العلمي الذي وضعه العرب ولا يزال دستوراً عند الأوروبيين إلى اليوم (إذا كنت ناقلًا فالصحة ، وإن كنت مدعيًا فالدليل) ، ولا أدعي فيما كتبت الإحاطة والاستقصاء ، بل حسبي أني فتحت الباب للباحثين ليكملوا السير من بعد ، حيث تأتي المعرفة عن طريق المحاضرة والمذاكرة وتكميل اللاحق ما كتبه السابق ، وتلك السنة الإلهية .

الإجازة عند اللغويين

الإجازة مشتقة من التجوّز ، وهو التعدي ، فكأنه عدّى روايته حتى أوصلها للراوي ،^(١) ويُعنى بالإجازة في كلام العرب مأخوذ من جواز الماء الذي يُسقاه المأل من الماشية والحرث ، يُقال منه : استجزت فلاناً فأجازني ، إذا أسقاك ماء لأرضك أو ماشيتك ، قال القطامي :

وقالوا فقيمُ قيمُ الماء فاستجزُ عبادة إنَّ المستجيز على قترٍ

وقال الشاعر :

ياقيم الأرض فدتك نفسي عجل جوازي وأقلّ حُسي

أي على ناحية ؛ كذلك طالب العلم يسأل العالم أن يبيّنه علمه فيجيزه إياه ، فالطالب مستجيز والعالم مجيز^(٢) وقالوا : أجاز الأمر : أنفذه^(٣) .

(١) قواعد التحديث للقاسمي ، ص ٢٠٥ ، نقلاً عن القسطلاني في المنهج .

(٢) المرجع ذاته نقلاً عن ابن فارس في جزئه في المصطلح .

(٣) حاشية لقط الدرر وأساس البلاغة ، ص ٦٩ .

هذا ؛ والإجازة مصدر أجاز ، ولها معان ينطبق الاصطلاح منها على الإباحة . ويجوز أن يعدى الفعل (أجاز) بغير حرف ولا ذكر رواية فيقول (أجزت فلاناً مسموعاتي) بناء على معنى الإباحة ، وقيل : الإجازة إذن فعلي ، فعلى هذا يقول له (أجزت له رواية مسموعاتي) وإذا قال له (أجزت مسموعاتي) فهو على حذف المضاف^(١) . فيصح على ما ذكرت قولهم (أجزت له ، وأجزته) .

الإجازة عند علماء أصول الحديث

الإجازة هي (إذن المحدث للطالب أن يروي عنه حديثاً أو كتاباً من غير أن يسمع ذلك منه أو يقرأه عليه ، كأن يقول له ؛ أجزت لك أن تروي عني صحيح البخاري فيروي عنه بموجب ذلك من غير أن يسمعه منه أو يقرأه عليه) . اهـ معجم المصطلحات الحديثية للدكتور العتر ، ص ١٠ ومابعداها ، ومنهج النقد له ، ص ٢١٥ ومابعداها .

الاحتجاج بالإجازة

وهي من طرق تحمل الحديث عند علماء الحديث في الدرجة الثالثة بعد القراءة والسماع ، وقد أجاز الرواية بها جمهور العلماء من أهل الحديث وغيرهم وادعى أبو الوليد الباجي الإجماع على ذلك وهو غير مسلم ، وقد وجد المصنفون في هذا الفن غموضاً في الاستدلال لجواز الإجازة ، واعترض ابن حزم في الأحكام على الإجازة ورآها بدعة غير جائزة ، وتشدد البعض في إنكارها^(٢) ،

(١) اللسان ، ج ٥ ، ص ٣٢٦ .

(٢) التدريب ١٣١ ومحاسن الاصطلاح للبلقيني ، ص ٢٦٥ .

وهذه مغالاة ، فإن بعض صور الإجازة لا يبلغ هذا الحد من ضعف الرواية كما سيأتي ؛ والحق أن العلماء اعتمدوا الإجازة بعدما دُوِّن الحديث وكتب في الصحف وُجِّع في التصانيف ، ونُقلت تلك التصانيف والصحف عن أصحابها بالسند الموثوق الذي ينتهي بقراءة النسخة على المؤلف أو مقابلتها بنسخته ، فأضحى من العسير على العالم كلما أتاه طالب من طلاب الحديث أن يقرأ عليه الكتاب ، فلجأوا إلى الإجازة ، فالإجازة فيها إخبار على سبيل الإجمال بهذا الكتاب أو الكتب أنه من روايته ، فتنزل منزلة إخباره بكل الكتاب نظراً لوجود النسخ ، فإن دولة الوراقين قامت بنشر الكتب بمثل ماتفعله المطابع الآن ، ولهذا لا يجوز لمن حمل الإجازة عند المحدثين المتقدمين أن يروي بها إلا بعد أن يصحح نسخته المؤلف ، أو على نسخة المؤلف ، أو على نسخة صحيحة مقابلة على نسخة المؤلف ، أو نحو ذلك مما نُسخ وصحح على النسخ المقابلة المصححة^(١) .

أنواع الإجازة

ذكر المحدثون للإجازة أنواعاً كثيرة اعتنى القاضي عياض بها في الإلماع ، وتقصّأها بما لم يُسبق إليه ، وذكر لها ستّة أنواع ، ثم جاء ابن الصلاح ولخص كلامه وزاد عليها نوعاً واحداً فبلغت سبعة أنواع هي : على سبيل الإيجاز :
 (أ) أن يحيز الشيخ لشخص معين أو أشخاص بأعيانهم كتاباً يسميه أو كتباً يسميها لهم ، وهي جائزة عند الجمهور .
 (ب) الإجازة من معين في غير معين مثل أن يقول : (أجزت لك أن تروي عني ماأرويه) ، وهي مما يجوّزه الجمهور توسّعاً .

(١) منهج النقد ، ص ٢١٥ وما بعدها .

(ج) الإجازة العامة كأن يقول : (أجزت للمسلمين أو للموجودين) وهي مختلف فيها والتحقيق أنها غير جائزة وإن قال بعضهم بجوازها .
(د) الإجازة للمجهول ، أو بالمجهول ، وهي فاسدة .
(هـ) الإجازة للمعدوم كالإجازة للحمل في بطن أمه ، وهي غير صحيحة أيضاً .

(و) إجازة ما لم يسمعه المجيز ، كأن يقول : (أجزت لك أن تروي عني ما سألته) والصحيح بطلانها عند الجمهور .
(ز) إجازة المجاز ؛ مثل أن يقول : (أجزت لك مجازاتي) وهي جائزة^(١) وتسمى (الإجازة عن الإجازة)^(٢) . وأعلها أن يجيز الشيخ لشخص معين كتاباً معيناً أو كتاباً معيناً حال كونها عالين بهذا الكتاب لتحقيق معنى الإخبار فيه كاملاً قوياً عالياً .

والأصل في الإجازة أن ينطق الشيخ بلفظها الصريح شفاهاً أمام تلميذه ، فإن أجازته كتابة من غير نطق لم تصح عند المتشددین ، غير أن الأرجح لدى الجمهور مساواة الكتابة للنطق في موضوع الإجازة من حيث الصحة وإن كانت الكتابة بلا نطق أنقص من الإجازة الملفوظ بها ، ولكن المحدثين أطلقوا المشافهة في الإجازة المتلفظ بها تجوزاً ، والمكاتبة في الإجازة المكتوب بها ، هذا عند المتأخرين لا عند المتقدمين كما هو معلوم في هذا الفن .

(١) علوم الحديث لابن الصلاح ، ص ١٣٤ - ١٤٤ ، والإلماع ، ص ٨٧ - ١٧٠ .

(٢) علوم الحديث : ١٤٥ .

شروط الإجازة ؛ وأركانها

قال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (تلخيص هذا الباب أن الإجازة لا تجوز إلا لما هو بالصناعة حاذق بها ، يعرف كيف يتناولها ، ويكون في شيء معين معروف لا يشكل إسناده فهذا هو الصحيح من القول في ذلك)^(١) . قالوا ، وأركان الإجازة أربعة :

١ - المجيز .

٢ - والمجاز له .

٣ - والمجاز .

٤ - ولفظ الإجازة .

وحقيقتها الإذن في الرواية لفظاً أو كتابة يُفيد الإخبار الإجمالي عرفاً ؛ ولهذا كانت متأخرة عن العرض والسمع لأن الإخبار فيهما تفصيلي . ولا يُشترط القبول فيها وإن استحسنه بعض المتأخرين^(٢) ، ولا يضرها الرد ولا رجوع الشيخ عن إجازته للطالب كما قرره السيوطي في التدريب واعتمده .

قال ابن سيد الناس : (أقل مراتب المجيز أن يكون عالماً بمعنى الإجازة العلم الإجمالي من أنه روى شيئاً ، وأن معنى إجازته لذلك الغير في روايته ذلك الشيء عنه بطريق الإجازة المعهودة لا العلم التفصيلي بما روى وبما يتعلق بأحكام الإجازة ، وهذا العلم الإجمالي حاصل فيما رأيناه من عوام الرواة . فإن انحط راوٍ في الفهم عن هذه الدرجة - ولا إخال أحداً ينحط عن إدراك هذا إذا عرف

(١) جامع بيان العلم وفضله ، ٢ : ١٨٠ .

(٢) حاشية لقط الدر ، ص ١٤ ، نقلاً عن البلقيني والشمسي .

به - فلا أحسبه أهلاً لأن يُتحمّل عنه بإجازة ولا سماع . وهذا الذي أشرت إليه من التوسع في الإجازة هو طريق الجمهور) .

قال القسطلاني ؛ وماعده من التشديد فهو منافٍ لما جوّزت الإجازة له من بقاء السلسلة ، نعم لا يُشترط التأهل حين التحمل ، ولم يقل أحد بالأداء بدون شرط ، الرواية وعليه يُحمّل قولهم (أجزت له رواية كذا بشرطه) (١) .

وأعلى أنواع الإجازة مطلقاً المناولة المقرونة بالإجازة ولها صور عديدة ذكرها السيوطي في التدريب فلتُنظر ، وهناك أيضاً المكاتبه المقرونة بالإجازة تأتي عند الجمهور في قوة المناولة المقرونة بالإجازة أو أقل منها بدرجة عن البعض .

التعبير عن الإجازة

والصحيح الذي عليه الجمهور وأهل التحري تخصيص الإجازة بعبارة مشعرة بها كحدثنا وأخبرنا إجازة أو مناولة وإجازة أو إذنًا في إذنه أو فيما أذن لي أو فيما أطلق لي روايته أو أجازتي أو لي ، أو ناولني أو شبه ذلك . واصطلح قوم من المتأخرين على إطلاق (أنبأنا في الإجازة) واختاره المعمرى صاحب كتاب (الإجازة في تجويز الإجازة) ، قال السيوطي في التدريب : وهو الذي عليه عمل الناس الآن . . . وقيل وفيما عُرض على المحدث فأجازه شفاهاً (أنبأني) أو شافهني أو (أنا مشافهة) وفيما كتب إليه (كتب إليّ) و (أنا كتابة أو في كتابة) وأجازه القسطلاني للعرف الخاص الذي يدفع اللبس .

واستعمل المتأخرون في الإجازة الواقعة في رواية من فوق الشيخ حرف

(١) قواعد التحديث ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

(عن) فيقول فيمن سمع شيخاً بإجازته عن شيخ (قرأت على فلان عن فلان) (١) . قال البلقيني في محاسن الاصطلاح (والقرينة الحالية من إرادة إبقاء سلسلة الإسناد قاضية بأن كل مجيز أذن لمن أجازته أن يجيز ، وذلك في الوكالة جائز) اهـ ، قلت خلف في ذلك الأنطاقي قلت وماذهب إليه البلقيني هو المعتمد والله تعالى أعلم .

قلت : واستحسن الإمام النووي وغيره الإجازة من العالم لمن كان أهلاً للرواية ومشتغلاً بالعلم ، لا للجهال ونحوهم فتضيع هدراً وما أحسن ما قال الشاعر ونسب للإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله رضي عنه :

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي	ولا أنثر الدر النفيس على الرمم
فإن قدر المولى الكريم بفضلته	وشاهدت أهلاً للمواعظ والحكم
نثرت علمي واستفدت علومهم	وإلا فمخبوء لدي ومكتم
فمن منح الجهال علماً أضاعه	ومن منع المستوجين فقد ظلم

قلت : وأحسن ما رأيت ماقاله أبو الوليد الباجي في تقسيم الإجازة (الاستجازة إما أن تكون للعمل فيجب على المجاز له أن يكون من أهل العلم بذلك والفهم باللسان ، وإلا لم يحل له الأخذ بها ، فربما كان في مسألته فصل لوجه لم يعلم به المجيز ، ولو علمه لم يكن جوابه به ، وإما أن يكون للرواية خاصة فيجب أن يكون عارفاً بالنقل والوقوف على ألفاظ ما أجيز له ليسلم من التصحيف والتحريف ، فمن لم يكن عالماً بشيء من ذلك وإنما يريد علو الإسناد بها ففي نقله ضعف) (٢) .

(١) التدريب ، ج ٢ ، ص ٤٢ وما بعدها ، ومحاسن الاصطلاح ، ص ٢٧٥ .

(٢) فتح المغيث ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

ب (مكانة الإجازة عند العلماء المتقدمين

لا تعني كلمة الإجازة مانفهمه اليوم من معناها الخاص (الليسانس) ، ولكنها تعني لديهم مجرد شهادة الشيخ لتلميذه بالرواية عن لسانه في أمر محدد أو غير محدد ، وقد كان العلماء الأوائل يستخدمون هذه الوسيلة مع طلابهم ويجعلون الإجازة في مقام الدرجة العلمية التي تمنحها الدولة اليوم^(١) ، فكان الطالب بعد أن يستكمل تعليمه ينال من شيخه إجازة ، قد تكون خاصة بكتاب أو موضوع ليجيز له تدريسه أو روايته ، وقد تكون عامة بسائر ما قرأ عليه لتعني الدرجة العلمية ، وقد أصبحت الإجازة من الضرورات التي يجب على العالم الحصول عليها لكي يثبت أنه وصل إلى درجة كافية من العلم تؤهله لتدريس ماسمعه أو تلقاه عن شيخه أو أستاذه أو روايته له^(٢) . وكثيراً ما كان يرحل الرواة والفقهاء وطلبة العلم وراء الإجازات في الأقطار الأخرى التي تأتيهم بعلو الإسناد أو تكسبهم شهرة من روايتهم عن شيخ مشهور . ويتبين من الدراسة للنماذج القليلة التي عثر عليها من الإجازات التي منحها مدرسون بالمستنصرية وغيرها من المدارس المعاصرة لها : أن الشيخ المدرس كان يجيز تلميذه أو طالب الإجازة بوجه عام لرواية كتاب بعينه أو مجموعة من الكتب من تأليفه أو تأليف غيره ، وقد يجيز بالقراءة أو بالرواية في علم بذاته أو في مجموعة من العلوم .

ويلاحظ في بعض الإجازات أن الشيخ يكون حريصاً ملتزماً على براءته مما قد يعرض من سهر أو تحريف أو غلط أو تصحيف ، ويذكر دائماً في الإجازة اسم الطالب ملتمس الإجازة واسم الشيخ مانح الإجازة ، كما يذكر كاتبها في

(١) أدب الحديث النبوي ، ص ٧٧ .

(٢) الرحلة في طلب الحديث ، للخطيب البغدادي .

نهايتها مع تحديد التاريخ الذي صدرت فيه^(١) ، ثم الإجازة تكون بلفظ المجيز بعد السؤال منها من المجاز له أو غيره أو مبدئاً بها ، وتارة تكون بخطة على استدعاء كما جرت به العادة أو بدون استدعاء^(٢) .

وقد كتب أبو الأشعث أحمد بن المقدام العجلي كما أورده الخطيب في الكفاية وعياض في الإلماع (في التبرؤ من التصحيف والتحريف في الرواية) :

كتابي إليكم فافهموه فإنه	رسولي إليكم ، والكتاب رسول
فهذا سماعي من رجال لقيتهم	لهم ورع مع فهمهم وعقول
فإن شئتم فارووه عني فإنما	تقولون ما قد قلته وأقول
ألا فاحذروا التصحيف فيه فربما	تغير عن تصحيفة فيحول ^(٣)

أقدم إجازة عشر عليها علماء الفن

جاء في قواعد التحديث للقاسمي مانصه (أقدم إجازة عشرت عليها :
جاء في شرح ألفية العراقي نقلاً عن الإمام أبي الحسن محمد بن أبي الحسين بن
الوزان قال : ألفت بخط أبي بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب الحافظ
الشهير صاحب يحيى بن معين وصاحب التاريخ مامثاله «قد أجزت لأبي زكريا
يحيى بن مسلمة أن يروي عني ما أحب من كتاب التاريخ الذي سمعه مني أبو
محمد القاسم بن الأصبغ ومحمد بن عبد الأعلى كما سمعاه مني ، وأذنت له في
ذلك ولمن أصبحوا أصحابه ، فإن أحب أن تكون الإجازة لأحد بعد هذا فأنا

(١) دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية ، ص ٥٤

(٢ و ٣) فتح المغيث ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

أجزتُ له ذلك بكتابي هذا ، وكتبه أحمد بن أبي خيثمة بيده في شوال من سنة ست وسبعين ومائتين» ثم قال : (وكذلك أجاز حفيد يعقوب بن شيبة وهذه نسختها فيما حكاها الخطيب «يقول محمد بن يعقوب بن شيبة : قد أجزت لعمر بن أحمد الخلال وابنه عبد الرحمن بن عمرو لختنه علي بن الحسن جميع مافاته من حديثي مما لم يدرك سماعه من المسند وغيره ، وقد أجزت ذلك لمن أحب عمر ، فليرووه عني إن شاؤوا ، وكتبتُ لهم ذلك بخطي في صفر سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة») اهـ (١) .

الإجازة من الناحية الأدبية

بعد هذا المدخل الذي قدمناه عن الإجازة عند العلماء والمحدثين والفقهاء ، يحسن بنا أن نتكلم عن أنواع الإجازة من الناحية الأدبية وعن خصائصها العامة ثم عن مكانتها في العصر الحاضر ومستقبلها في قادمات الأيام .

أنواع الإجازة كما يبدو نوعان : نشر وهي الأغلب في الإجازات ، ونظم وهي الأقل ، ثم النشر على ضربين : نشر عادي وهي الأغلب عند المحدثين والفقهاء (ساذج) ونشر فني وهو الأغلب عند الأدباء والشعراء والفقهاء المتأدبين أو شعراء الفقهاء وفقهاء الشعراء .

دونك نصاً من الإجازة بالنثر الفني منحها الكاتب الشاعر أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان المالقي المعروف بابن صفوان من شيوخ الأندلس (مالقة) لأديب الأندلس الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب رحمهما الله تعالى

(١) قواعد التحديث ، ص ٢٠٦ .

وهي كما وردت في كتاب (لسان الدين ابن الخطيب حياته وتراثه الفني) للأديب المعاصر محمد عبد الله عنان ؛ قال :

[الحمد لله مستحق الحمد ، أجبت سؤال الفقيه الأجل ، الأفضل السري ، الماجد ، الأوحد ، الأحفل ، الأديب البار ، الطالع في أفق المعرفة والنباهة ، والرفعة المكيمة والوجاهة ، بأبهى المطالع ، المصنف الحافظ ، العلّامة ، الحائز في فني النظم والنثر ، وأسلوب الكتابة والشعر ، رتبة الرياسة ، الحامل لراية التقدم والإمامة ، محلي جيد العصر بتوابعه الباهرة الدواء ، ومجلى محاسن بنيه الرائقة على منصّة الإشهاد والإنباء ، أبي عبد الله ابن الخطيب ، وصل الله سعادته ومجادته ، وسنى من الخير الأوفر ، والصنع الجميل الأبر ، مقصده وإرادته ، وبلغه في نجله الأسعد وابنه الراقي ، بمحتده الفاضل ، ومنشئه الأطهر ، محل الفرقد ، أفضل ما يؤمل نحلته إياه في المكرمات وإفادته ، وأجزت له ، ولابنه عبد الله المذكور ، أبقاهما الله تعالى في عزة سنيّة الخلال .

وعافية ممتدة الأفياء وأرفة الظلال ، رواية جميع ما تقيّد في الأوراق ، المكتتب على ظهر أول ورقة منها ، من نظمي ونثري ، وما توليت إنشاءه ، واعتمدت بالارتحال والرواية اختياره وانتقاءه أيام عمري ، وجميع ما لي من تصنيف وتقييد ، ومقطوعة وقصيد وجميع ما أحمله عن أشياخي رضي الله عنهم من العلوم ، وفنون المنثور والمنظوم بأي وجه تأتّى ذلك ، وصحّ حملي له وثبت إسناده لي ، إجازة تامة ، في ذلك كله عامة ، على سنن الإجازات الشرعية ، وشرطها المأثور ، عند أهل الحديث المرعي ، والله ينفعني وإياهما ، بالعلم وحمله ، وينظمننا جميعاً في سلك حزبه المفلحين وأهله ويفيض علينا من أنوار بركته وفضله ، قال ذلك وكتبه بخط يده الفانية أحمد بن إبراهيم ابن أحمد بن صفوان ، ختم الله له بخير ، حامداً لله تعالى ، ومصلياً ومسلماً على محمد نبيه المصطفى الكريم ، وعلى آله الطاهرين ذوي المنصب العظيم ، وصحبه

البرة ، أولي المنصب والأثرة التقديم ، في سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل] . نقلها ابن الخطيب في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة)^(١) والمُقَرِّي في (نفح الطيب) .

قلت : ودونك نصاً من ثبت الأمير الكبير بإجازة له من شيخه الإمام نور الدين أبي الحسن علي بن أحمد الصعيدي العدوي المالكي الذي لزمه الأمير مدة تفوق عشرين سنة وتخرَّج به وجمع له ثبثاً كتب له في آخره شيخه الصعيدي هذه الإجازة (وكان الشيخ الصعيدي هذا يعد آنئذ شيخ الشيوخ ومن كبار العلماء الأزهريين بمصر) قال :

[بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ؛ فإنه لما منَّ الله علينا بصحبة الشاب الأجد ، اللوذعي الأحمد ، الغواص على المعاني والدقائق ، المبادر لفهم العلوم على وجهها والحقائق ، المحصِّل في العلوم ، والدِّراك لها بطرفيها المنطوق والمفهوم ؛ الشيخ محمد الأمير في المشاركة في العلوم ؛ التمس مني إجازة لما سمعه مني وغيره مما أخذته عن الأشياخ بالسماع والإجازات ظناً منه أي أهل لذلك ، ولست أهلاً لما هنالك ؛ إلاَّ أني حسَّنتُ ظنَّه فأقول : قد أجزَّته بما أخذه عني وما سمعه مما سمعته من الأشياخ وغيره من المجاز به من الأشياخ مما في هذه الكُرَّاسة وغيره ، نفع الله به وأطال عمره في ذلك ، وأرجو منه أن لا ينساني في خلواته وجلواته بالدعاء بحسن العاقبة على أكمل وجه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وكتبه أفقر عباد الله وأحوجهم إلى ألطافه علي بن أحمد الصعيدي خادم الفقراء بالأزهر المعمور بذكر الله تعالى] . انظر ثبت الأمير ص ٢ و ٣ .

(١) لسان الدين ابن الخطيب ، ص ٣٢٠ وما بعدها ، وانظر الإحاطة ، ج ١ ، ص ٢٣٦ وما بعدها

(سنة ١٩٥٦ م) ، ونفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ .

أقول وهذه الإجازة عالية الإسناد من أهم إجازات الشيخ الأمير المذكور من نوع الإجازة العادية (الساذجة) وهذا الطراز هو الأغلب في فن الإجازات عند الفقهاء والمحدثين وانظر في ذلك ثبت العلامة ابن عابدين الكبير رحمه الله تعالى لشيخه الشيخ شاکر العقّاد وذيله تجد إجازات السيد ابن عابدين من أشياخه مرقومة في ذيل الثبوت الذي جمعه مفتي البلاد الشامية الشيخ محمد أبو الخير عابدين رحمه الله تعالى ، ولا سيما إجازة الشيخ محمد سعيد الحلبي للعلامة ابن عابدين الكبير فلتنظر هناك^(١) فإنها إجازة نفيسة ذات قيمة ، وكذلك إجازة الشيخ محمد شاکر العقّاد للعلامة ابن عابدين المذكور نثراً .

أما الإجازات المنظومة فهي قليلة جداً ، ولكنها معروفة لدى العلماء ، وربما كانت معروفة بين الأدباء والشعراء أكثر ، ودونك نصاً من إجازة الشيخ محمد شاکر العقّاد النظم للعلامة ابن عابدين الكبير صاحب الحاشية والثبت ومجموع الرسائل (السيد محمد أمين المتوفى سنة ١٢٥٢ هـ) :

الحمد لله المجيد الهادي	حمداً بديعاً جلّ عن نفاذ
ثم صلاة مع سلام أمجد	على النبي المصطفى محمد
وآله وصحبه الكرام	أولي التقى والفضل والإنعام
وبعد ؛ فاعلم أيها المهذب	بأن علم الدين أصل طيب
لا سيما علم الحديث والأثر	وفقه نعمان الإمام المعتبر
وكان ممن جدّ في ذا الشأن	السيد المفضال ذو الإتقان
محمد أمين ابن عمّرا	من جدّه بعابدين اشتهرا
لازمي في مدة مديدة	قراءة لكتب عديدة

(١) عقود اللآلي في الأسانيد العوالي ، ص ٢١٥ وما بعدها .

ما بين فقه وحديث شافي
ومنطقٍ وعِلْمِ آدابِ حلا
ثم ابتغى مني أن أجيزه
هذا وإنني لست من فرسانها
لكنَّما التشبيهُ بالكرام
طريقة مسلوكة مندوبة
هذا وإنني قد أجزته بما
وعلم نحو وبيانٍ صافي
وَضَع عروض والقوافي قد تلا
وأن أبين في الوري إبريزه
ولا من الحائم في ميدانها
أهل التُّقى والسادة الأعلام
وُبُغْيَةٌ محمودة مرغوبة
أرويه حقاً عن فحول العلماء . . .

قلت وهي طويلة تبلغ ثلاثة وثلاثين بيتاً من بحر الرجز مؤرخة في (صفر سنة ١٢١٧ هـ) ، وختمه مكتوب فيه (عبده شاكر) وفي آخرها الجُمْلُ المعروف آنثذ (جَدُّهُ يُمْنٌ ظَهَرَ سنة ١٢١٧ هـ) ، عَدَّدَ فيها الشيخ العقَّاد أشياخه ومروياته وعَقَّبَ ذلك بوصية موجزة مع ذكر إسمه ولقبه ونسبه وما عرف به^(١) ، ولديَّ أخيراً صورة إجازة ثرية من المتحدث الكبير العلامة مسند المغرب وحافظ العصر السيد محمد بن جعفر الكتاني دفين فاس ونزيل دمشق للمرحوم العلامة الشيخ أمين سويد الدمشقي في المعقول والمنقول أحتفظ بها .

أما خصائص الإجازة الخطية العامة فهي كما يبدو بعد الإستقراء بقدر الوسع والطاقة (سواء كانت نثراً أو شعراً فنية أو عادية) ستنحصر في خمسة (١) أنها غالباً لا تُعطى إلا بعد طلب من المجاز للمجيز ويرمز المجيز لذلك بقوله : (طلب مني ، سألني ، طلب إليّ . . . وما أشبه ذلك) .

(٢) أنها كانت عند المتقدمين إذناً بالرواية لكنها عند المتأخرين من العلماء كانت الوثيقة والدرجة العلمية التي تشهد لصاحبها بصحة إسناده وقوة إرتباطه بالسند ورجاله ، وغالباً ما كان يُتَوَخَّى بها علو الإسناد .

(١) عقود اللآلي ، ص ٢١٣ و ٢١٤ ، وانظر رسالتنا لنيل درجة الدكتوراه (ابن عابدين وأثره في الفقه دراسة مقارنة بالقانون) ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ ، وانظر إجازة الشيخ السقا للشيخ محمد بدر الدين الحسيني المحدث الأكبر شيخ الحديث في عصره في ترجمة له للسيد محمد رياض المالح .

(٣) أنها في الأصل ما كانت تُعطى إلا عن استحقاق وأهلية ، ثم حصل التساهل بها في العصر الأخيرة فصارت عند العلماء نوعين : إجازة تخرج ورواية ، وإجازة تبرك ، والأخيرة ليس لها قيمة علمية إذا لم يكن صاحبها أهلاً لحملها .

(٤) أنها أصبحت تعبر عن أهلية صاحبها لأن يميز غيره ممن يرى فيه الأهلية ، فأضحى صاحبها في مرتبة الشيوخ المميزين أو المعيدين ، بدل كونه من الطلبة العاديين الذين لا يحق لهم أن يميزوا أحداً لأن فاقد الشيء لا يعطيه .

(٥) أنها في كل العصور صورة من العناية بالإسناد خصيصة هذه الأمة ومفخرة من مفاخرها ، ولذلك كان العلماء يتفاخرون ويتباهون .

أما الصفات العامة للإجازة المكتوبة ، فهي :

١ - أنها تبدأ عادة بالبسملة والحمدلة والصلوة وبراعة الاستهلال في الأغلب .

٢ - ويعقب المميز بعد ذلك بذكر طلب المجاز الإجازة منه وأنه ليس أهلاً لذلك (تواضعاً) بعد ذكر اسم المجاز ولقبه وما عُرف به ووصفه أحياناً بصفات مадحة ، لا سيما في إجازة الأقران بعضهم لبعض حيث يطري المميز المجاز إطرأً عظيماً مع تواضع جم له .

٣ - ويأتي بعد ذلك لفظ الإجازة بالماضي وذكر العلوم والفنون أو الطرق الصوفية التي أجازها بها الكاتب .

٤ - وإذا كانت الإجازة مختصرة اكتفى كاتبها بذلك وبوصية موجزة يعقبها التاريخ العادي أو الشعري في إجازة الشعر (الجمل) أو هما معاً ، واسم الكاتب ووظيفته إذا كان مفتياً أو نقيب أشرف أو قاضياً ، مع تواضع ظاهر وإذا كانت مطوّلة يذكر الكاتب شيوخه والكتب والعلوم التي قرأها عليهم وأنهم

أجازوه بها ، وقد يأتي بإسناده كله إذا خاف من الارتياب لدى الغير ، وقد تكون الإجازة مسجوعة ، وقد تكون مرسلة وقد تكون جامعة للسجع والإرسال وهو الأغلب في عصرنا الحاضر من حيث كان السجع منتشرًا في العصر الخوالي .

وجملة القول إن الإجازة فن قائم بذاته وأدب رفيع لا يوجد له نظير عند الأمم بل هو من ابتكار العرب المسلمين عند نضج الحضارة لديهم واختيارها .
وقد خلّف لنا أدب الإجازات لوحات فنية رائعة نثرًا ونظمًا لا سيما عند علماء الأندلس وقرأ إن شئت في نفح الطيب للمقري تشهد من هذا النوع صفحات ناصعات .

لقد كان للإجازات العلمية في الزمن الغابر دولة وأي دولة ، فمن لا إجازة له لا يؤخذ عنه ، فلقد سمعنا من أشياخنا نقلًا عن عالم دمشق وأبي حنيفة زمانه الشيخ عبد الحكيم الأفغان نزيل مدينة دمشق ودفينها المتوفى أوائل هذا القرن الميلادي ، أن تلاميذه سألوه أن يقرأ لهم درسًا في فن الحديث فقال لهم : أنا غير مجاز في الحديث بل مجاز في الفقه الحنفي وبقية العلوم فانتظروني أياماً . فذهب إلى بعض المحدثين في زمانه فقرأ عليهم طرفاً من فن الحديث وأخذ منهم إجازة بذلك ثم ذهب إلى تلاميذه فأقرأهم هذا الفن بعد أن أُجيز به من أهله عن استحقاق .

ولما كانت مدارس المسلمين هي جامعاتهم كانت الإجازات هي الدرجات العلمية التي ينالها علماءهم ، فكان الطالب يأخذ إجازة في كل كتاب قرأه أو فن انتهى من قراءته على شيخه حتى إذا ما وصل إلى درجة في العلم سُمي معيداً فنال بذلك إجازة في بعض العلوم ، فإذا ما ارتقى إلى درجة التشيخ نال من شيخه إجازة شاملة يتصدّر بعدها للإقراء منفرداً عن أهلية .

مكانة الإجازة في عصرنا

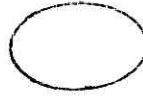
وأما مكانة الإجازات العلمية في عصرنا الحاضر فقد قل الاهتمام بها بظهور الشهادات الجامعية والدرجات العلمية التي تعطيها الجامعات كدرجة التخصص (الماجستير) التي تشبه إجازة في بعض العلوم التي تخصص بها المعيد ، ودرجة الدكتوراه التي تشبه الإجازة الشاملة التي يعطيها الشيخ الأستاذ لمن رأى أهليته لأن يصبح شيخاً أستاذاً ، فهي في العربية (درجة الأستاذية) . ولكني مع احترامي للدرجات العلمية الحديثة الصادرة من الجامعات أرى أنها لا تُغني عن الإجازات ، فهي تثبت الأهلية ، ولكن ليس فيها قوة الإسناد الموجودة في الإجازة العلمية ، والمفروض بالعالم اليوم أن يجمع العمق المتوفر في نظام الدراسة القديم مع السعة المتوفرة في النظام التعليمي الحديث فينال الدرجة العلمية الجامعية ويضم إليها إجازة الشيوخ الذين قرأ عليهم ليرتبط بالإسناد فيكون لعلمه حسب ونسب ، وتكون له مع السلسلة الفضية التي تمنحها إياه الجامعة سلسلة ذهبية يمنحه إياها الشيوخ العلماء بقية السلف الصالح وهذا ما شرفني الله تعالى به والله الحمد والمنة^(١٣) .

ولا يضير خريج الجامعة أن يكون خريج المسجد وأن يتشرف بحمل الإجازة العلمية بعد قراءة علوم الشريعة واللغة العربية على أسياده بل يزداد فضلاً إلى فضل وشرفاً إلى شرف فيكون قد شهد بعلمه الدكاترة والشيوخ معاً ونال منهم جميعاً ما يُثبت أهليته واستحقاقه للأستاذية .

أرى أن تُبعث الإجازات من جديد وأن نعود إليها شريطة أن لا تُعطى للتبرك ولا لمن لا يستحق ، فيؤلف مجلس للعلماء في كل قطر يصادقون فيه على

(١٣) تشرفت بالإجازة الشاملة من ساحة والدي العلامة الشيخ محمد صالح الفوزان ومن المرحوم الدكتور محمد أبي اليسر عابدين ومن المرحوم العلامة السيد محمد المكي الكتاني ومن المرحوم العلامة محدث الحرم المكي الشيخ علوي عباس المالكي ومن غيرهم رحمهم الله تعالى وأجزل مثوبتهم .

هذه الإجازات كما تصادق مجالس الجامعات على درجاتها ، فيحجبون الإجازة التبركية وما كان واقعها غير صحيح لسبب من الأسباب أو لمن كان غير أهل للجهل أو بدعة ، فلا تكون الإجازة معتبرة حتى تُختتم بخاتم مجلس علماء ذلك القطر أو المدينة فيصادقون على صحة الإجازة وأهلية المجيز والمُجاز وصحة التوقيع والخاتم ، فتعود بذلك للإجازات العلمية قيمتها المندثرة ويبقى الإسناد لهذه الأمة ما بقي الزمان فهو من خصائصها ومحامدها ومفاخرها ويجب أن يبقى كذلك ببقاء الإجازة وأدب الإجازة بشروطها المذكورة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .



الْقَوْلُ الْبَلَاغُ
فِي تَحْقِيقِ الْبَلَاغِ
عِنْدَ عُلَمَاءِ الدَّرَايَةِ وَالرِّوَايَةِ

[هل هو مِنْ طُرُقِ التَّحْمُلِ
أَمْ لَيْسَ مِنْهَا ؟ وَمِنْ أَيِّ نَوْعٍ هُوَ ؟]

من أمانة العلم وميثاقه الذي أخذه الله على أهل العلم أن يبينوه للناس ولا يكتُمونه ، وجدتني أمام واجب ديني علمي لا بد لي من بيانه وجلاء اللبس فيه ، وذلك أني قرأت في صفحات هذه المجلة الزاهرة مقولةً لباحث يزعم أن طرق التحمل في علم مصطلح الحديث تسعة لا ثمانية ، والتاسع الذي زاده هو (البلاغ) ثم يذهب فيشرح البلاغ بأنه (علامة من علامات التسميع) ويحيل إلى كتاب كبير من كتب هذا الفن وهو التدريب للإمام السيوطي شارح التقريب للإمام النووي ، ثم يذهب فيعزو ذلك على لسان السيوطي إلى الخطيب البغدادي . . .

وتوقفتُ ملياً عند هذا الاستدراك والتعقيب الذي قام به هذا الباحث على باحث سبقه فكتب في طرق التحمل الثمانية ولم يزد عليها شيئاً ، لأنه لم يجد من زاد عليها فهي ثمانية منذ ولادة هذا الفن إلى يومنا هذا لم يقل أحد لا الخطيب البغدادي ولا السيوطي ولا النووي ولا ابن الصلاح بغير ذلك أبداً . . .
وذهبتُ أنقب في الكتب والمراجع الكبيرة ، واتهمتُ ذاكرتي وما درسناه على أشياخنا رضوان الله عليهم في مقدمة ابن الصلاح والتدريب والنخبة وشروحها . وقلت في نفسي (الذاكرة خؤون) و (لعل هناك في خفايا العلوم وثنايا الكتب ما قصر عنه فهمي) وقلت لنفسي (وفوق كل ذي علم عليم) وذهبت أطلب العلم ثانياً ، ويعلم الله أني لأستنكف عن طلب العلم والاستفادة ما حييتُ . . . وهذا شرف لي دونه كل شرف . . .

ولم أترك كتاباً قديماً ولا حديثاً ولا متناً ولا شرحاً ولا حاشيةً إلا نظرت فيه فلم أجد ما يؤيد ما ذهب إليه الباحث الفاضل من أن البلاغ من طرق التحمل وهو طريق تاسعة فوق الثمانية ، ولكني وجدت أن البلاغ حسبما شرحه هو (علامة من علامات التسميع) كما ذكره الإمام السخاوي في فتح المغيب بصورة واضحة . ووجدتُ كذلك البلاغ من مباحث اصطلاحات الأداء - لا

التحمل - تعبيراً عن الوجدادة عند تأدية الحديث وليس عند تحمله ، وكذلك هو أيضاً من اصطلاحات المحدثين في الحديث المعضّل ، يقول معضّل الحديث (بلغني عن فلان) . . .

قلت فأين هذا الذي نص عليه علماء الفن مما ذهب إليه الكاتب الفاضل ؟ وهل يجوز أن نخترع نحن أو نزيد من عقولنا شيئاً على مصطلح الحديث الذي اصطلح عليه الجهابذة الأقدمون وفرغوا منه ؟ ولزيادة التأكيد على أمانة العلم فأنا سأسوق في هذه المقالة النصوص العلمية بين يدي القارئ الكريم من مصادرها مع العزو الأمين ثم أتوصل إلى النتيجة العلمية الصحيحة ، وسأجعل بين يدي البحث مدخلاً لغوياً يزيده وضوحاً إن شاء الله تعالى .

البلاغ في لغة العرب

- ١ - قال الفيروزبادي في القاموس : [البَلَاغُ كَسَحَاب ؛ الكفاية ، والاسم من الإِبلاغ والتبليغ ؛ وهما الإيصال] ^(١) .
- ٢ - وقال ابن منظور في لسان العرب ؛ [بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً ؛ وصل وانتهى . . . وتبلّغ بالشيء ؛ وصل الى مراده ، والبلاغ ما يُتبلّغ به ويُتوصل إلى الشيء المطلوب . والبلاغ ، ما بَلَغَكَ ، والبلاغ الكفاية ، وبَلَغْتَ الرسالة ، والبلاغ ؛ الإِبلاغ ، . . . والإِبلاغ ؛ الإيصال ، وكذلك التبليغ ؛ والاسم منه البلاغ] ^(٢) .
- ٣ - وقال الزمخشري في أساس البلاغة [وَبَلَغْتُ ببلاغ الله : بتبليغه . . . وتبلغ بالقليل اكتفى به] ^(٣) .

(١) القاموس المحيط ج ٣ ص ١٠٣ في مادة (ب ل غ) باب الغين فصل الباء .

(٢) لسان العرب ج ٨ ص ٤١٩ وما بعدها .

(٣) أساس البلاغة ص ٢٩ .

٤ - وقال المطرزي في المغرب : [مِنْ بَلَغَتْ بِهِ الْمَكَانَ إِذَا بَلَغَتْهُ إِيَّاهُ]^(١) .

قلت : وعلى هذا يكون البلاغ مشتركاً لفظياً بين معنيين ؛ الأول منهما ؛ اسم مصدر من التبليغ بمعنى الإيصال والانتهاء إلى الشيء ، والثاني منها مصدر من تَبَلَّغَ بالشيء بمعنى اكتفى به بمعنى (الْبُلْغَةُ) وقد يأتي بمعنى الاقتراب من الوصول كما في التنزيل (فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم)^(٢) .

البلاغ عند علماء أصول الحديث

آ - تمهيد

كل باحث في علم أصول الحديث يعلم أن مراجع هذا الفن على درجات متفاوتة . فمنها الأصول ، ومنها الشروح والحواشي والمختصرات وهي الأمهات ، ومنها كتب تأتي في الدرجة الثالثة بعد ماتقدم وهي كتب الدراسات .

فمن الأصول ؛ المحدثُ الفاصل بين الراوي والسامع للإمام الرامهرمزي ، والكفاية في علوم الرواية للخطيب البغدادي ، وعلوم الحديث لابن الصلاح المعروف (بالمقدمة) ، و(معرفة علوم الحديث) للحاكم النيسابوري والمدخل في أصول الحديث له أيضاً .

رحم الله هؤلاء الأئمة ورضي عنهم ونَصَّرَ وجوهمهم .
ومن الأمهات ؛ ماكان شرحاً لما تقدم أو اختصاراً أو نظماً ؛ فمن ذلك ؛ محاسن الاصطلاح للبلقيني اختصر به مقدمة ابن الصلاح مع

(١) المغرب في ترتيب المعرب ج ١ ص ٨٥ .

(٢) القاموس الفقهي ص ٤١ .

التهذيب والزيادة ، وكتاب الإرشاد للإمام النووي اختصر به كتاب ابن الصلاح، ثم اختصر هذا الكتاب في كتابه (التقريب) ، وجاء السيوطي فكتب على التقريب هذا شرحاً حافلاً جامعاً لعلوم الحديث سماه (التدريب) ، ونظم الإمام زين الدين العراقي علوم الحديث لابن الصلاح في ألفية مع زيادات نافعة وشرحها بشرحين مطول ومختصر ، وشرح الإمام السخاوي ألفية العراقي في كتاب سماه (فتح المغيث في شرح ألفية الحديث) شرحاً وافياً ، وكذلك اختصر الحافظ ابن كثير مقدمة ابن الصلاح بكتابه (اختصار علوم الحديث) ، وكذلك فعل الطيبي في (الخلاصة في علم الحديث) وعلاء الدين المارديني ، ونظم السيوطي كذلك مقدمة ابن الصلاح في ألفيته ، وشرح الحافظ العراقي المقدمة بشرح نفيس سماه (التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من كتاب ابن الصلاح) ، ويُسمى أيضاً (النكت) ، وشرح المقدمة البدر الزركشي ، والحافظ ابن حجر العسقلاني في (الإفصاح على نكت ابن الصلاح) .

ومن هذه الأمهات أيضاً ما جاء ملخصاً لعدة مسائل ومباحث من علوم الاصطلاح مثل (نُخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر) للحافظ ابن حجر العسقلاني وشرحها (نزهة النظر) للمصنّف ، وعلى هذا الشرح حاشية نفيسة للعدوي اسمها (لقط الدرر) ، وحاشية للمنلاعلي القاري .

ومن أبرز كتب الدرجة الثالثة ؛ المنظومة البيقونية وشرحها وأهم هذه الشروح (شرح الشيخ محمد الزرقاني وعليه حاشية للشيخ الأجهوري ، وقصيدة غرامي صحيح وأحسن شروحها شرح الشيخ عبد القادر الاسكندراني الدمشقي المعاصر ، وشرح شيخ شيوخنا الشيخ محمد بدر الدين الحسيني عليها ، وتوجيه النظر إلى أصول الأثر للشيخ طاهر الجزائري الدمشقي ، وقواعد في علوم الحديث للتهانوي ، وقواعد التحديث للشيخ

محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي وشرح الشيخ عبد الله سراج الدين الحلبي لمعاصر على البيقونية^(١) ، وهناك أيضاً كتاب (توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار) للعلامة الأمير الصنعاني رحمهم الله تعالى وأجزل ثوابهم جميعاً .

ب - الأقاويل المنقولة في شأن البلاغ في كتب علوم الحديث :

وإني سأختار من الأصول والأمهات التي ذكرت كتباً توفرت لدي في مكتبي المتواضعة أنقل عنها ماورد في شأن البلاغ لدى علماء هذا الفن ؛

١ - علوم الحديث للإمام ابن الصلاح (المقدمة) ؛ في النوع الحادي عشر (معرفة المعضّل) قال [وذكر أبو نصر السجزي الحافظ قول الراوي «بلغني» نحو قول مالك (بلغني عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ؛ للمملوك طعامه وكسوته . . . الحديث) وقال ؛ أصحاب الحديث يسمونه المعضّل]^(٢) قلت ومثل ذلك في كتاب (توجيه النظر إلى أصول الأثر) للشيخ طاهر الجزائري الدمشقي الذي هذب مقدمة ابن الصلاح وزاد عليها زيادات ذات بال^(٣) .

٢ - التدريب شرح التقريب للسيوطي ؛ في النوع الحادي عشر (المعضّل) .

ذكر أولاً قريباً من كلام ابن الصلاح ثم قال ؛ [فائدة : صنف ابن عبد البر كتاباً في وصل ما في الموطأ من المرسل والمنقطع والمعضّل ، قال ؛ وجميع ما فيه من قوله (بلغني) ومن قوله [عن الثقة عنده مما لم يسنده ؛ أحد

(١) قلت وقد تطفلت على موائد الكرام فنظمت منظومة وسطاً في مائة بيت ونُيف في علوم الاصطلاح سميتها (فتح الفتاح وتغر النرجس الفواح في علوم الاصطلاح) أرجو الله تعالى أن يقيض لها من أبنائي البررة من طلبة العلم من يشرحها ، وهناك كتاب قيم في هذا الباب صدر حديثاً للزميل الدكتور نور الدين العتر هو (منهج النقد في علوم الحديث) .

(٢) مقدمة ابن الصلاح بتحقيق د . نور الدين العتر ص ٥٤ و ٥٥ .

(٣) انظر توجيه النظر ص ٦٨ ، و ١٦٩ و ١٧٠ ط النمنكاني في المدينة المنورة .

وستون حديثاً كلها مسندة من غير طريق مالك إلا أربعة تُعرَف [ثم ذكر الأربعة .

وقال في النوع الخامس والعشرين (كتابة الحديث وضبطه ، وفيه مسائل) المسألة التاسعة ؛ (والكلام مزيج من متن التقريب للنووي وشرحه التدريب للسيوطي) .

[ينبغي في كتابة التسميع أن يكتب الطالب بعد البسملة اسم الشيخ المسموع ونسبته وكنيته ، قال الخطيب : وصورة ذلك حدثنا أبو فلان فلان ابن فلان الفلاني ، قال حدثنا فلان ، ثم يسوق المسموع على لفظه ، ويكتب فوق البسملة أسماء السامعين وأنسابهم وتاريخ وقت السماع أو يكتبه في حاشية أسفل ورقة من الكتاب أو آخر الكتاب أو موضع آخر حيث لا يخفى منه ، والأول أحوط ، قال الخطيب ، وإن كان السماع في مجالس عدة كتب عند انتهاء السماع في كل مجلس علامة البلاغ . . [٣] .

٢ - فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي ؛ للحافظ السخاوي ، قال عند مبحث كتابة التسميع ؛ في شرح قول الحافظ العراقي :

ويكتب اسم الشيخ بعد البسملة والسامعين قبلها مكملة مؤرخاً أو جنبها بالطرة أو آخر الجزء والإظهرة وكذا يحسن تسمية المسموع إن كتب التسميع بمحل غير مسمى فيه خوفاً من انفراد الورقة فيصير الواقف عليها في حيرة ، وأن ينبه حيث كانت الكتابة بالأثناء على محلها أول المسموع ، فقد رأيت شيخنا يفعل فيقول مثلاً «فرغه سماعاً فلان والطبقة بالمكان الفلاني» ويعلم بالهوامش عند انتهاء كل مجلس

(١) التدريب ج ١ ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) التدريب ج ٢ ص ٨٩ ط دار الكتب الحديثة بتحقيق الشيخ الفاضل عبد الوهاب عبد اللطيف .

بأن يقول مثلاً «بلغ السماع في الأول على فلان» لأجل من يفوته بعضها أو يسمع بعضها»^(١) .

٣ - الزرقاني على البيقونية ؛ قال في النوع التاسع عشر من أقسام الحديث (المعضل) .

[قال العراقي ؛ وقد مثل أبو نصر السجزي المعضل بقول مالك بلغني عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال (للمملوك طعامه وكسوته ...)]^(٢) .

٤ - قواعد في علوم الحديث للتهانوي الهندي ؛ قال ؛

[قلت ؛ ويدخل في هذا الفصل البلاغ أيضاً ، فبلاغات الثقات من القرون الثلاثة مقبولة عندنا مطلقاً ، كالإمام مالك وأبي حنيفة والشافعي ومحمد بن الحسن وأبي يوسف وأمثالهم ، وبلاغات من دون هؤلاء إن كان يروونها الثقات كما رووها مسنده كالبخاري وأحمد وغيرهما فمقبول اتفاقاً إذا كان بصيغة الجزم ، وإن كان يُرسل عن الثقات وغيرهم فلا يُقبل اتفاقاً ، على أنهم قد ذكروا كما في (رد المحتار) وغيره أن بلاغات محمد مسندة^(٣) ، كذا في التعليق المجمع ، وقال محمد بن عبد الباقي الزرقاني في (شرح الموطأ) إن بلاغ مالك ليس من الضعيف ، لأنه تتبع كُله فوجد مسنداً من غير طريقه^(٤) .

(١) فتح المغيث ج ٢ ص ١٩٤ و ١٩٥ ط الثانية في المطبعة السلفية بالمدينة المنورة .

(٢) الزرقاني على البيقونية بحاشية الأجهوري ص ٥٤ ومابعداها ، ومثله في شرح البيقونية للشيخ عبد الله

سراج الدين الحلبي المعاصر ص ٨١ ومابعداها .

(٣) ر ؛ رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين) للعلامة ابن عابدين ج ٢ ص ٥٧٦ / .

(٤) قواعد في علوم الحديث للتهانوي ص ١٦٣ ومابعداها .

٥ - منهج النقد في علوم الحديث ؛ للدكتور العتر ؛ قال في شأن العبارة عن الوجداء [وله أن يقول «قال فلان» وكذا «ذكر فلان» و«بلغني عن فلان»]^(١) .

بعد هذه الجولة المباركة في رياض علوم الحديث وحدائقها الغنّ وَجَدْتُني بحاجة إلى التوقف أُصنّف فيه ماقرأتُ لك من هذه النصوص في شأن البلاغ عند علماء الفن ؛ فأقول وبالله التوفيق :

اصطلح علماء علوم الرواية من علوم الحديث على أن يريدوا بكلمة البلاغ أحد معاني ثلاثة الأول ، اصطلاح من اصطلاحات الأداء لمن تحمّل بالوجداء ، وجمعه بلاغات . والثاني ؛ علامة من علامات كتابة الحديث ويعبرون عنها عادةً بعلامة البلاغ . والثالث ؛ أن يكون اصطلاحاً من اصطلاحات التعبير عن الحديث المعضل الذي سقط منه اثنان على التوالي .

١ - فالأول لا يأتي مستقلاً في الأغلب بل مضافاً إلى من عُزي إليه فتقول مثلاً ؛ (بلاغات مالك في الموطأ ، بلاغات محمد بن الحسن في روايته عن مالك ، بلاغات أحمد في المسند . . . إلخ) فالبلاغات هنا هي إشارة إلى الأحاديث التي رواها الإمام المذكور بالوجداء عندما يؤديها لتلاميذه أو يكتبها في مصنفاته ، فليست هي الوجداء ، بل هي من اصطلاحات أداء الوجداء مثل (ذكر فلان) و (قال فلان) و(وجدتُ في كتب فلان) إلا أنها تلميح وليست بتصريح . وندر أن يُقال لدى علماء هذا الفن (بلاغات) فقط دون إضافتها إلى أصحابها .

(١) منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين العتر ص ٢٢٦ ط ٣ ، قلت ؛ وفي منجم المصطلحات الحديثية تصنيف الزميل الدكتور العتر في ص ٢٢ / حرف الباء / ؛ مايلي ؛ [(بلغني عن فلان) الرقم العام (24 in) علو الحديث (158) في التقريب والتدريب 2 - 63 - 62 وفي منهج النقد 226

٢ - وأما الاصطلاح الثاني ؛ فهو لا يَعْدُو أن يكون علامةً من علامات كتابة الحديث وضبط مجلس الحديث وهو ما يُسمَّى بـ (التسميع) وذلك أن الطالب لفظ الحديث .

كما ذكره السخاوي في فتح المغيث والسيوطي في التدريب نقلاً عن الخطيب البغدادي ونوّه به من نقلت عنهم آنفاً - إذا انتهى مجلس التحديث يأمره شيخه أن يكتب التسميع فيكتب على حاشية نسخته اسم شيخه ولقبه وكنيته وأسماء الحاضرين وألقابهم وهو ما يُسمَّى أيضاً بالطبقة أو الطباقي ، ثم يكتب في نهاية ذلك اسمه ولقبه ، ويختتم ذلك كله بكتابة علامة البلاغ أي لفظ (بلغ) مع تأريخه حتى يُعرف في قادمات الأيام من حضر كل الكتاب ومن حضر قسماً منه على الشيخ كي لا يدّعي من لم يحضر أنه حضر أو يُحرم من حضر من ثمرات الحضور ، ويكتب الشيخ تحت ذلك كله شهادته وتوقيعه غالباً مثل (صح) أو (صحيح) و(كتب فلان بن فلان خادم الحديث الشريف) فالبلاغ هنا اصطلاح من اصطلاحات التسميع يُعرف به حدود الدرس الماضي والدرس الجديد ومن حضر في المجلس السابق ، ويُسمَّى التسميع (سماعاً) ويُجمع على (سماعات) ، أما قول بعض المحذّثين (قرأ عليّ البلاغ) أي [كتب تلميذي فلان التسميع وقرأه عليّ] مثلما كتبه على نسخته في الحاشية أي الجانب الأيمن أو الأيسر من فراغات النسخة ، فأقررت مافيه من أسماء الأشخاص وألقابهم وعلامة البلاغ وتاريخها مثلما قرأها عليّ وأنا أشهد على ذلك] .

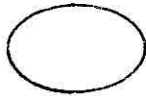
وربما أراد الشيخ من ذلك كله علامة البلاغ فقال (قرأ عليّ البلاغ) أي العلامة التي تشير إلى حدود الدرس السابق بلفظ (بلغ) ويكون مع تاريخه غالباً .

٣ - وأما الاصطلاح الثالث بأن يكون البلاغ تعبيراً عن الحديث المعضّل كما ذكر

الحافظ بن الصلاح ومن مشى معه فليس مما ذكر الكاتب في شيء ولا علاقة له بما قال .

وأما أن يراد بالبلاغ إضافة طريق من طرق التحمل جديد^(١) الى الطرق الثمانية المعروفة فلم يقل به أحد من علماء الفن القدامى ولا المعاصرين ، والله تعالى أعلم .

وَعَدُّ ؛ فأحب أن ألفت نظر الإخوة الباحثين إلى الدقة في البحث العلمي والكتابة فيه لاسيما في علوم الحديث ، ولعل في هذا المثال تذكراً في ذلك ، كي نتجنب التسرع ، ونسأل أهل الذكر والتخصص إذا أشكل علينا الأمر ، قال تعالى : ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾ والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .



نظرات هادفة في كتاب

أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة

للأستاذ محمد علي المغربي

أطلعت قريباً على هذا الكتاب القيم الجديد في موضوعه ، فسُررت ، وغمرتني الغبطة لما لمست به من وفاء الرجال ، والوفاء اليوم قد غاض حتى أضحي قطعاً نادراً لا يكاد المرء يصل إليه ، والذي أثلج قلبي من الكتاب ذلك الاحتفاء الكبير بأولئك الأعلام الذين يستحقون كل تكريم كفاء ما قاموا به من أعمال وفَعَال ، ولعل أدباء الأقطار الأخرى يقتدون بالمؤلف الفاضل فيكتبون عن أعلام قطرهم في هذا القرن الرابع عشر للهجرة ، ويكون من ذلك للعلم والحضارة خير كثير .

شكرت للأديب المعاصر الأستاذ محمد علي المغربي الجُهدَ الميمون الذي قام به في جمع مادة كتابه هذا ثم في ترتيبها وتنسيقها ثم في سبكها الجيد في ديباجة معجبة ، ثم في طبعها المتقن وإخراجها الجميل في زهاء ثلاثمائة وخمسين صفحة بإشراف دار مؤسسة تهامة في سلسلة الكتاب العربي السعودي . . . ولا والله ؛ لا يعلم الشوق إلّا من يكابده . . ! فلقد ابتليتُ بمثل ما ابتلي به الأستاذ المغربي من اشتغال بالأدب والتراجم وفن الرجال بخاصة والعمل العلمي بعامه ، وذقت من ذلك ما ذاق ، لذا فله مني ومن القراء الكرام كلّ تقدير ، ولقد اطلعتُ على التقرير الذي كتبه السيد محمد العقيل في المجلة العربية الزاهرة في العدد السابع من السنة الخامسة فقام بذلك خير قيام بما يستحقه الكتاب ومؤلفه .

غير أن العقل الإنساني مهما ارتقى في سُلّم المعرفة غير معصوم عن الخطأ أو الذهول والنسيان ، لذا وجدّني بعد مطالعة الكتاب على نفاسته مضطراً لتبيين بعض الاستدراك الهام ذي الصبغة الموضوعية على هذا الكتاب ، لعل المؤلف يعود في طبعة أخرى - حفظه الله - فيستدرك ما فات ، وهذه هي أهم الملحوظات :

أ - أولها : أنه لم يؤرّخ المؤلف لكثير من أعلام مكة المكرمة في القرن الرابع عشر

للهجرة ، ولم يأت لهم على أية ترجمة ، بالرغم من أنه ذكر بعضهم في معرض ذكر شيوخ من ترجم لهم من الأعلام مثل العلماء السادة : عباس المالكي ، وعمر حمدان المحرسي ، وعمر باجنيد، وقال إنهم أعلام مكة في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة ، والمؤلف ترجم لبعض أعلام مكة ، فلم يترجم لهؤلاء !! وهم من جهابذة العصر ، وأنا أضيف إليهم شيخنا العلامة السيد علوي عباس المالكي محدث الحرم المالكي ووالد صديقنا العلامة الدكتور السيد محمد علوي المالكي - حفظه الله - ، وكذلك علامة الزمان الشيخ عبد الباقي اللكنوي الهندي الأنصاري ، والعلامة الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلسي ، والأستاذ الشيخ حسن المشاط وأضرابهم .
لعل المؤلف يعتذر عن ذلك بأنه إنما ترجم لمن اتصلت أسبابه بأسبابهم لأنه يعرفهم كما نوه بذلك في خطبة كتابه ، وربما كان هؤلاء على جلالة قدرهم ممن لم يتشرف المؤلف بمعرفتهم .

قلتُ : إن كتابه إنما هو في (أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة) لا فيمن يعرف من أعلام الحجاز ، وإلا كان يجب أن يُكتب العنوان هكذا (من عرف من أعلام الحجاز) ، وليس كذلك . . . هذه واحدة .

والثانية : أن تراجم هؤلاء الأعلام وجدت أغلبها الآن في كتب التراجم العامة مثل : الأعلام للزركلي، ومعجم المؤلفين لكحالة، والأعلام الشرقية لزكي محمد مجاهد ، فقد ترجم هؤلاء لأغلب أولئك الأعلام ، فكان جديراً بالمؤلف وهو الذي قام بهذا الجهد المشكور أن يُتَّوج عمله بالاستيعاب بقدر الإمكان فينقل على الأقل ما كتبه الزركلي وكحالة ومجاهد

من تراجم لأولئك الرجال الجهابذة الذين ملؤوا أرض الحجاز علماً وفضلاً شهد لهم بذلك القاصي والداني ، وهم على الأقل باعثو النهضة العلمية في

الحجاز وشيوخ أغلب من ترجم لهم المؤلف من الأعلام ، وشيوخ كثيرين من أعلام الشام ومصر وغيرهما من الأقطار .

٢ - وكذلك لم يؤرخ المؤلف لأعلام في المدينة المنورة لا يقلّون أهمية عن هؤلاء ، منهم الفاضل الشيخ محمد بن إبراهيم الختني المدني ، والفاضل الشيخ علي أعظم وأضراهما ، وليست ترجمة هؤلاء عن أمثال المؤلف الحجازي ببعيد . وأودُّ أن أعرض على سبيل المثال ثلاث تراجم لثلاثة أعلام حجازيين عاشوا وماتوا في القرن الرابع عشر للهجرة ، وهم من الجهابذة المرموقين :
للهجرة ، وهم من الجهابذة المرموقين :

الترجمة الأولى : لعبد القادر الشلبي الطرابلسي من كتاب معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ؛ وهي :

[عبد القادر الشلبي (١٢٩٥ - ١٣٦٩ هـ)

(١٨٧٨ - ١٩٥٠ م) عبد القادر بن توفيق

الشلبي ، الحنفي ، فقيه ، شاعر ، ولد ونشأ بطرابلس الشام ، وانتقل إلى المدينة ، فاشتغل بالتدريس ، ثم عُيِّن بها رئيساً لجماعة التنقيب عن الآثار في أواخر زمن الترك فمعتمداً للمعارف بعدهم ، وتوفي بالمدينة ، ودُفن بالبقيع ، من آثاره : ديوان شعر ، قصائد في المديح النبوي ، رسالة في حُكم استعمال الأدوية الأفرنجية على قواعد المذاهب الأربعة ، وثبّت سماه (الإجازات الفاخرة) [. انظر معجم المؤلفين ج ٥ : ٢٨٥ ، والأعلام ج ٤ : ١٦٣ ط ٢ ، وج ٤ ص ٣٨ ط ٣ .

الترجمة الثانية : لعلوي المالكي من كتاب الأعلام للزركلي ؛ وهي :

[علوي المالكي (١٣٢٥ - ١٣٩١ هـ)

(١٩٠٩ - ١٩٧١ م) علوي بن عباس المالكي

الحسني ، مدرّس من علماء مكة ، مولده ووفاته بها ، تخرج بإحدى مدارسها (الفلاح) وتفقه في المسجد الحرام ، ثم قام بالتدريس فيه وفي مدرسة الفلاح ، وألقى أحاديث بالمذيع أسبوعية ، وصنّف نحو عشرين كتاباً أو رسالة ، طبع بعضها ، وله نظم جمعه في ديوان ، ومن كتبه المطبوعة (المنهل اللطيف في بيان أحكام الحديث الضعيف) و (المواعظ الدينية) و (نفحات الإسلام من محاضرات البلد الحرام) وله (فتاوى - خ) في مجلدين [. انظر الأعلام ج ٤ : ٢٥٠ ومشاهير علماء نجد ٤٤٦ .

الترجمة الثالثة : لمحمد بن إبراهيم الحتّني (١٣١٤ - ١٣٨٩ هـ)

(١٨٩٦ - ١٩٦٩ م) [محمد

ابن إبراهيم بن سعد الله بن عبد الرحيم الفضيلي الحتّني ثم المدني ، مدرّس ، من علماء تركستان ، ولد في بلدة (قرّة قاش) من أعمال (ختن) بتركستان وتعلّم بها وبمدينة (كاشغر) ورحل إلى الأستانة ، ومنها إلى مكة حاجاً (١٣٤٨ هـ) واستقر في المدينة فقام بالتدريس في مدرستها النظامية إلى (١٣٥٤ هـ) ثم بمدرسة العلوم الشرعية نحو خمس سنوات ، وعيّنته الحكومة (١٣٨٢ هـ) في مكاتب المدينة . وآخرها المكتبة العامة . وكان له اطلاع على نواذر المخطوطات ، يجيد مع العربية التركية والأردية والفارسية والبخارية ، ودرّس في المسجد النبوي ، وصنّف كتباً بالعربية

وغيرها منها (مجموعة الفتوى) و (تنقيح النحو) و (تحفة المستجيزين بأسانيد أعلام المجيزين) في الحديث و (فتح الرؤوف ذي المنن في تراجم علماء ختن) وقام برحلات إلى بلاد الشام والعراق وتركيا وغيرها وحج ما يقرب من أربعين حجّة ، وتوفي في المدينة [اهـ . انظر الأعلام ج ٥ ص ٣٠٧ ، والمنهل : صفر ١٣٩١ من قلم محمد سعيد دفتردار .

٣- أما الثالثة : فهي نظرة أراها جديرة بالاهتمام وأود أن يتقبلها المؤلف بروح علمية موضوعية :

فالكتاب تأريخي يُترجم لأعلام الحجاز وهو خاص بالتأريخ والتراجم دون الفرق والعقائد ، فلماذا أقحم فيه نقد الجماعات الصوفية في الصفحة ذات الرقم ٢١٣ عند الترجمة على الشيخ محمد حسين نصيف ، وهب أن هذا موقف لعلم من الأعلام الذين ترجم لهم المؤلف فلماذا يسوقه المؤلف في معرض الرضا والاعتبار ؟ علماً بأنه ليس كل الصوفية مسيئين كما هو معلوم ، والواقعة كما يقول الأصوليون لا تقتضي العموم ، بل ربما كان هنالك منهم الرباني الورع ، ومنهم غير ذلك شأن كل المذاهب ، فعلام كل هذا التعميم ؟

المفروض بالمؤرخ المنصف والعالم المتثبت ألا يعمم الحكم على مجموعة كبيرة من الناس ؛ فيها الحق وفيها صاحب الدعوى ، بل شأنه أن يقرر الفكرة الصحيحة ويسددها ، والفاسدة وينقدها دون الالتفات إلى الأشخاص ، وكفانا نحن المسلمين ما وصلنا إليه من تمزق وتفرق لم يعد علينا بأي نفع ، بل بالضرر الأكيد في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى التقارب والتناصح وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف . . . ، وما لم تصل المسألة إلى العقيدة فأمر يسير ، وقديماً قالوا (الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية) .

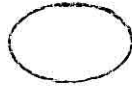
وأرى أن الاشتغال اليوم منا جميعاً بالرد على الملاحدة والدّهريين والوجوديين وأصحاب الأفكار الهدامة التي أفسدت العقول والأخلاق ، وتفنيد مزاعمها وأطماعها والعمل على دحرها وهدمها مجتمعين متعاونين - أولى . . .

وبعد ؛

فهذه نظرات لا تغض من قيمة هذا الكتاب القيم أبداً ، ويني أن
الأستاذ المؤلف سيتناول كتابه بالاستدراك إن شاء الله في طبعة قادمة ، ولعل
هذا السُّفرَ الجليل يكون له ما بعده من أمثاله إن شاء الله .

ولُيعذرني الأستاذ المؤلف . . . فإني قصدت الحقيقة المجردة ووجه
الله عز وجل والغيرة على هذا الدين ، ولُيعلم الأستاذ المغربي أني وإن لم
أتشرف بمعرفته أكن له في قلبي كل احترام وتقدير ، والعلم بين أهله
نسب .

ولقد كان العلماء يؤلفون ويكتبون ويستدرك بعضهم على بعض
ويتقبلون ذلك بكل ترحاب ، بل يُعدُّونه من عوامل تقدّم العلم
والحضارة ، وما أحسن ما قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي إمام
المذهب رحمه الله تعالى ورضي عنه ؛ وليكن هذا القول دستور العلماء على
اختلاف مناهجهم وآرائهم ؛ (علّمنا هذا رأي ، وهو أحسن ما قدّرنا
عليه ، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه) .



أبرز مصادر الكتاب ومراجعته

الأجهوري (عطية)	حاشية على شرح الزرقاني على البيقونية
الإسنوي (جمال الدين)	طبقات الشافعية
الأصبهاني (العماد)	جزء من الخريدة
البُلقيني (سراج الدين عمر)	محاسن الاصطلاح ، بهامش مقدمة ابن الصلاح
	بتحقيق د . بنت الشاطيء
بروكلمان (كارل)	تاريخ آداب العرب
التَّهَانُونِي (ظفر أحمد)	قواعد في أصول الحديث تعليق الشيخ
	عبد الفتاح أبو غدة
ابن تُغْرِي (المؤرخ)	النجوم الزاهرة
بُرْدِي	
أبو حبيب (سعدي)	القاموس الفقهي
الجزائري (طاهر)	توجيه النظر إلى أصول الأثر
الحموي (ياقوت)	معجم البلدان
ابن خلدون (عبد الرحمن)	العبر
ابن خلكان (شمس الدين)	وفيات الأعيان
الذهبي (الحافظ)	تذكرة الحفاظ وذيله
الزنجشيري (محمود)	أسس البلاغة
الزرقاني (محمد)	شرح البيقونية
السخاوي (الحافظ)	فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للواقعي
(شمس الدين)	

شرح البيقونية	سراج الدين (عبد الله)
تدريب الراوي شرح تقريب النواوي	السيوطي (عبد الرحمن)
طبقات الشافعية	السبكي (تقي الدين)
الوافي بالوفيات	الصفدي (الصلاح)
ابن الصلاح (تقي الدين أبو عمرو) علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح) ت د .	
العترة (د . نور الدين)	منهج النقد في علوم الحديث ط ٣ /
ومعجم المصطلحات الحديثية .	
العراقي (الحافظ)	ألفية الحديث (التبصرة والتذكرة) .
ابن العماد (الحنبلي)	الشذرات
ابن عابدين (محمد أمين)	رد المحتار على الدر ط بولاق ١٢٧٢
مجموع الرسائل جزءان	
الفيروزبادي (محمد بن يعقوب)	القاموس المحيط
الفرفور (د . محمد عبد)	معايير الفكر (في المنطق)
اللطيف	
ابن منظور (ابن المكرم)	لسان العرب
المطرزي (ناصر الدين)	المغرب في ترتيب المعرب
مصطفى (د . محمد قاسم)	ديوان الأرجاني - تحقيق
المغربي (محمد علي)	أعلام الحجاز
كحالة (عمر رضا)	(معجم المؤلفين)
كنون (عبد الله)	أدب الفقهاء
النووي (يحيى بن زكريا)	التقريب والتيسير
النشواني (خيرى)	الوصف عند الأرجاني
اليافعي	(مرآة الجنان)
مجلة الفيصل والمجلة العربية ومجلة نهج الإسلام السورية	

المصادر والمراجع

أ - المراجع القرآنية :

- (١) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، الإمام القرطبي ، ط دار الكتب .
- (٢) تفسير الجصاص (أحكام القرآن) ، الإمام الرازي الجصاص ، ط الإستانمولية .
- (٣) الخفاجي علي البيضاوي ، الشهاب الخفاجي .

ب - المراجع الحديثية :

- (١) تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ، الإمام السيوطي .
- (٢) حاشية الأجهوري على الزرقاني على البيهقي ، العلامة الأجهوري .
- (٣) فتح المغيث شرح ألفية الحديث ، الإمام العراقي .
- (٤) الباعث الحديث لاختصار علوم الحديث ، الحافظ ابن كثير .
- (٥) قواعد التحدث ، القاسمي .
- (٦) مقدمة ابن الصلاح (علوم الحديث) ، الإمام ابن الصلاح ، بتحقيق د . عائشة عبد الرحمن .
- (٧) محاسن الاصطلاح ، العلامة البلقيني ، بتحقيق د . عائشة عبد الرحمن بهامش مقدمة الصلاح .
- (٨) حاشية لقط الدرر في شرح متن نخبة الفكر ، شرح النخبة للحافظ ابن حجر ، ولقط الدرر لعبد الله بن حسين .
- (٩) مقدمة ابن الصلاح (علوم الحديث) ، للإمام ابن الصلاح ، بتحقيق د . نور الدين العتر .
- (١٠) جامع بيان العلم وفضله ، الحافظ يوسف بن عبد البر النمري .
- (١١) منهج النقد في علوم الحديث ، د . نور الدين العتر .
- (١٢) معجم المصطلحات الحديثية ، د . نور الدين العتر .
- (١٣) ثبت الأمير الكبير ، العلامة محمد الأمير (المصري) .
- (١٤) علوم الحديث ، د . صبحي الصالح .
- (١٥) عقود اللآلي في الأسانيد العوالي ، العلامة السيد محمد أمين عابدين صاحب الحاشية أو (المختار على الدر المختار) ط إستانمول .

جـ - المراجع الأخرى (التراجع واللغة) :

- (١) دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية ، عمر رضا كحالة .
- (٢) الإمام الشيرازي حياته وآراؤه الأصولية ، د . حسن هيتو ، ط الأولى ، دار الفكر بدمشق .
- (٣) ابن عابدين وأثره في الفقه دراسة مقارنة بالقانون ، د . محمد عبد اللطيف الفرفور .
- (٤) الشيخ محمد بدر الدين الحسيني ، عالم الأمة وزاهد العصر ، محمد رياض المالح .
- (٥) لسان العرب ، ابن منظور .
- (٦) أساس البلاغة ، الزمخشري .
- (٧) الكليات ، الكفوي .
- (٨) أدب الحديث النبوي ، د . بكري شيخ أمين .

مصادر البحث

- الأجهوري (عطية) حاشية على شرح الزرقاني على البيقونية
 البلقيني (سراج الدين عمر) محاسن الاصطلاح ، بهامش مقدمة ابن الصلاح
 بتحقيق د . بنت الشاطيء
 التهانوني (ظفر أحمد) قواعد في أصول الحديث تعليق الشيخ
 عبد الفتاح أبو غدة
 ابن عابدين (محمد أمين) حاشية رد المحتار على الدر المختار ط بولاق ١٢٧٢ هـ
 الجزائري (طاهر) توجيه النظر إلى أصول الأثر
 الزرقاني (محمد) شرح البيقونية
 السخاوي (شمس الدين محمد) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للواقعي
 سراج الدين (عبد الله) شرح البيقونية
 السيوطي (عبد الرحمن) تدريب الراوي شرح تقريب النواوي
 الزخشري (محمود) أساس البلاغة
 ابن الصلاح (تقي الدين أبو عمرو) علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)
 تحقيق د . نور الدين العتر ط النمكاني
 العتر (د . نور الدين) منهج النقد في علوم الحديث ط ٣ /
 ومعجم المصطلحات الحديثية .
 العراقي (الحافظ) ألفية الحديث (التبصرة والتذكرة) .
 الفيروزبادي (محمد بن يعقوب) القاموس المحيط
 ابن منظور (ابن المكرم) لسان العرب
 المطرزي (ناصر الدين) المغرب في ترتيب المغرب ت ؛ فاخوري ومختار
 النووي (يحيى بن زكريا) التقريب والتيسير .
 مجلة الفيصل

... لعلي لا أجانف الصواب إذا قلت إن الحظ الأوفر من الشكر
يجب أن يتوجه إلى أولئك الذين كانوا السبب الرئيس في وضع هذه
المقولات وتدبيجها ، وأقصد الأشخاص الكاتبين الذين كتبوا
ماباعدتهم عن الصواب فاضطروني ذلك إلى مناظرتهم طبقا لقواعد
المناظرة العلمية مع احترامي لهم وتقديري لجهودهم ، والخلاف في
الرأي لا يفسد للود قضية ، وقديما اختلف العلماء وتناظروا ، وكل
منهم يحترم الآخر ويفدرة قدره ، وهذه أخلاق العلماء .



نشر توزيع طباعة ترجمة